من روائع المفردة القرآنية

د/ فاطمة محمد النجار

قسم البلاغة والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر – فرع البنات القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد

فالقرآن الكريم كتاب الله المعجز بنظمه وتركيبه، فكل لفظ فيه في موضعه السديد من النظم والسياق، فالقرآن مكون من ألفاظ مختارة دقيقة موحية، قد اتسقت في جملتها، واستقرت في مكانها، وَحَسُنَ وقعها في السمع وقوىّ تأثيرها في النفس، فكل كلمة منه في موضعها تعد سرًّا من أسرار إعجازه.

ولذلك قمت بدراسة المفردة القرآنية للوقوف على سر الإعجاز فيها، وهذه الدراسة تحتاج إلى تدّبر و تأمل في النصوص القرآنية لاستنباط المعاني والدلالات للمفردة القرآنية من خلال السياق ، والوقوف على جوانب الجمال فيها.

وقد حاولت أن أستقصى السر في جمال المفردة القرآنية في كتب البلاغة القرآنية والتفسير البياني، قديمًا وحديثًا، وقد وجدت للعلماء – قدامى و معاصرين– جهدًا مشكورًا في هذا المجال. فالمفردة القرآنية تتسم بتعدد جوانب جمالها، فهناك الإيجاز، ومناسبة المقام، والصوت الموسيقي، وإحكام الصورة، والأثر النفسي وغير ذلك.

فسعيت إلى توضيح دور المفردة في الصورة، حيث ساهمت في كثير من فنون البلاغة القرآنية، كالتشبيه، والكناية، و الاستعارة، وغير ذلك.

وقد تناولت أيضًا دلالات المفردات القرآنية، فدرست دلائل صيغ المفردة القرآنية حيث ذكر البيان القرآني صيغًا لمفردات تمتلك معاني لا تكون في صيغ أخرى، وتناولت بعض المفردات التي يعتقد ان فيها ترادفا، وبينّت أن كل كلمة تحمل معنى خاصًا معيّنًا، لا تحمله الكلمة الثانية.

كما وضحت الظلال النفسية للمفردة القرآنية من خلال توضيح العلاقة بين المفردة والموضوع أو الفكرة، وظلال الدلالة الخاصة لبعض المفردات القرآنية، إذ أضفى القرآن على بعض المفردات دلالة خاصة نتيجة صدورها عن الخالق عز وجل، وختمت بالدلالة السياقية للمفردة القرآنية ، ومن ثم جاء البحث في مقدمة وتمهيد وفصلين وخاتمة وفهارس.

وهذا لن نستطيع أن نستقصي الكلام في المفردة، أو أن نفيض في بيان الأمثلة، فقد التزمنا القصد في هذا البحث.

هذا و أسال الله أن يتقبل هذا العمل، خالصاً لوجهه الكريم، " وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " {هود:٨٨}.

التمهيد

حين نزل القرآن تحدى فصحاء العرب في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، ولكنهم عجزوا عن ذلك.

ولقد كان الإعجاز القرآني خليقًا أن يثير في الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف عن وجوه البلاغة القرآنية، وعن أسلوب القرآن الفذ في التصوير و التعبير، وبذل أولئك العلماء جهودًا مشكورة، وقاموا بمحاولات مضنية، لإبراز البلاغة القرآنية في صورة موحية ذات ظلال، ولكنهم وقفوا غالبا عند النص الواحد، فاقتطعوه اقتطاعًا من الوحدة القرآنية الكبرى، ودرسوه على حده دراسة تحليلية جزئية ذهب بمعالم جمالها خلافهم الذى لا يتناهى حول مشكلة اللفظ والمعنى، فكانت النزعة الكلامية تفسد عليهم تذوقهم للنصوص وإدراكهم مواطن البلاغة والإعجاز.

ولقد كان عبد القاهر ذواقة للأسلوب القرآني حتى أوشك أن يسبق عصره في بعض لمحاته الموفقة التي نفذ بها الى إدراك الجمال الفني في كتاب الله[١].

وأسلوب القرآن هو طريقته التى انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه ولا غرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به.

والقرآن لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم، فمفرداته مفرداتهم، و جُمَلُه جُمَلُهم، وقواعد صوغه قواعدهم من حروفهم تألفت كلماته، ومن

[١] انظر مباحث في علوم القرآن لصبحى الصالح ٣١٣-٣١ .

كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم جاء تأليفه، ومع هذا فقد أعجزهم بأسلوبه الفذّ، ومذهبه الكلامي المعجز.

إن في مفردات اللغة ما هو متآلف في حروفه، أو متنافر، وما هو واضح مستأنس أو خفي غريب، وما هو رقيق خفيف على الأسماع، أو ثقيل كريه تمجّه الأسماع، وما هو موافق لقياس اللغة أو مخالف له، ثم من هذه المفردات عامّ و خاصّ، و مطلق و مقيّد، ومعرّف ومنكَّر، وظاهر ومضمر، وحقيقة ومجاز.

ولعلمائنا أكرمهم الله أذواق مختلفة في استنباط الفروق الدقيقة بين استعمال حرف أو كلمة مكان حرف أو كلمة أخرى، و من السابقين في حلبة هذا الاستنباط الخطيب الإسكافي المتوفي سنة ٤٢٠هـ في كتابه " درة التنزيل وغرة التأويل[١] ".

وهناك كتب أخرى كثيرة ألفت في الغريب في مفردات القرآن ومعانيه.

ويرى البعض أن بلاغة اللفظ ضمن الأسلوب، يقول أبو زهرة " واللفظ المفرد له بلاغة خاصة ضمن الأسلوب، وأن كل كلمة فى جملة من الكلام تدل بمفردها على معانٍ تتساوق مع المعنى الجملى للكلام، وأن كل كلمة تكون بمفردها صورة بيانية تكون جزءًا من الصوره العامّة للقول، وذلك ليس معناه أن الكلمة لو جردت من الكلام تعطي وحدها ذلك الإشراق، ولكن ينبثق نورها بالتضام مع غيرها من غير أن يفنى ضوءها في ضوئه، ولا تنمحي صورتها البيانية التي أشرقت بهذا التضامّ، وذلك لم ينكره أحد حتى الجرجاني الذي تشدّد في اعتبار الأسلوب وحده هو سر الإعجاز من

[١] انظر مناهل العرفان في علوم القرآن الزرقاني ٢/٣٣-٣٠٤ .

غير التفات إلى معانى المفردات، فكلمات القرآن لها في تناسق حروفها وتلاقي مخارجها إشراق بلاغي، ولكن لا ينكشف ذلك الإشراق إلا بالتضامّ [١].

ونلاحظ في كثير من ألفاظ القرآن أنها اختيرت اختيارًا يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال منذ نزول القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة وكان ذلك قدحا في أنه كتاب الدين العام الخالد ودستور البشرية في كل عصر[٢].

[١] المعجزة الكبرى القرآن لأبي زهرة ٩٣.

[٢] مناهل العرفان ٢/ ٣٠٨.

الفصل الأول

الجوانب البيانية للمفردة القرآنية

١- اهتمام العلماء بالمفردة القرآنية

من قديم شغلت قضية اللفظ علماء العربية، واختلفت مذاهبهم فيه، فمنهم من تخيّر جوانب معينة في اللفظ القرآني، فوجّه إليها عنايته اللغوية، مثال ذلك كتاب " لغات القرآن" للأصمعى ، و "لغات القرآن" للفرّاء، ثم "المصادر في القرآن" للفرّاء ايضًا. ومنهم من وجّه عنايته للأسلوب القرآني، والمعاني، و النّظم، وصلته بالمعنى واللفظ، ومن هؤلاء أبو عبيده في كتابه "مجاز القرآن"، والجاحظ في كتابيه "نظم القرآن"، و"البيان والتبيين" ،وقد عني ابن قتيبة بالمفردة القرآنية في كتابيه "تأويل مشكل القرآن"، و"تفسير غريب القرآن" فقد بحث في المعاني المختلفة للفظ الواحد، وتبعه السيوطي في كتابه " الاتقان"، و "معترك الأقران في أعجاز القرآن"، وكذلك الزركشي في الجزء الأول من كتابه "البرهان في علوم القرآن".

ومن الكتب التي أُلفت في غريب القرآن كتاب: "الغريب في مفردات القرآن" للراغب الأصفهاني، وهو يبحث في الأصل المادى للمفردة القرآنية في دراسة وافية توضح دقة القرآن في انتقاء الفاظه.

ثم كثرت بعد ذلك الدراسات الجمالية التي ركزت على فنية الكلمة من خلال الإشارات واللمحات الموجودة في كتب الإعجاز والتفسير بالرأي.

٢- مذاهب العلماء في المفردة والنظم

لقد عني القدامى بالمفردة القرآنية في كتب الإعجاز، فمنهم من يرى جمال المفردة من خلال النظم، ومنهم من يرى استقلال المفردة بجمالها ودورها في الأداء.

فالجرجاني (صاحب نظرية النظم) يرى أن: جمال الكلام ليس في توالي ألفاظه في النطق بل إن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل[١]، فهو يقصر البلاغة والفصاحة على الأسلوب ومجموع العبارات التي تتضافر في الدلالة على معانٍ متآخية، وتتآخى الألفاظ في الدلالة على هذه المعاني[٢]، ويمنع منعًا مطلقًا أن تكون الألفاظ وحدها والكلمات منفردة سببًا للإعجاز، فالإعجاز في النظم.

ولم تكن نظرية النظم وليدة فكر عبد القاهر الجرجاني، فقد كانت صلب دراسة الإعجاز البياني عند الجاحظ و غيره، ولهذا فقد تداولوا معانيها وأسسها وشرحوا شيئاً من ماهيتها وأصولها إلى أن وصلت إليه.

ويتبين في جهود الأسلاف أنهم لم يبدوا الرأي المتشدّد الذي لا يتزحزح في تأكيد النظم، بل ترجحوا بين المفردة والنظم[٣].

وهناك فريق آخر، ومن هؤلاء الجاحظ، يرون للحروف وللكلمات فصاحة، عندما تتلائم حروفها ولا تتجافى مخارجها، ولا يكون فيها تكرار[٤].

---

[١] انظر دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ٤٩.

[٢] انظر المعجزة الكبرى لأبي زهرة ٧٤ وما بعدها.

[٣] جماليات المفردة القرآنية لأحمد ياسوف ٣٨.

[٤] المعجزة الكبرى ٧٥.

وقد وقف الجاحظ على جماليات المفردة القرآنية في مواضع كثيرة من كتابيه: "الحيوان" و "البيان و التبين".

ففي كتاب " البيان و التبين " نعثر على رأي الجاحظ في اللفظ القرآني الذي أولاه التنزيل عناية خاصة، فاختاره بدقة ليدل على المعاني بدقة، وقد يشترك لفظان في المعنى لكن أحدهما أدقّ من الآخر في الدلالة عليه، ولنظم القرآن براعته فى تنزيل اللفظ منزلته في الموضع الذى أريد له، ويمتاز بروعته أيضًا في الاختيار ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتى بالألفاظ المترادفة دالّا على معنى واحد وإنما للدلالة على معانٍ مختلفة، وبقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن[١].

يقول الجاحظ : "وقد يستخفُّ الناس ألفاظاً، وغيرها أحق بذلك منها : ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن "الجوع" إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المُدقع والعجز الظاهر،والناس لا يذكرون السّغب و يذكرون الجوع في حالة القدرة والسلامة، وكذلك ذكر "المطر" لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والأمَّة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث[٢]".

كذلك اهتدى الجاحظ إلى أن القرآن قد يستعمل لفظًا بعينه، فيستغني به عن ألفاظ، ويدل به على معان كثيرة وأسماء مجتمعة، فتكون اللفظة جامعة شاملة كلفظة " مُكَلِّبِينَ " فى قوله تعالى: "قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ" {المائدة:٤}، فاشتق لكل صائد،

[١] التعبير الفني في القرآن الكريم لبكرى أمين ١٥٤.

[٢] البيان والتبين للجاحظ ٢٠/١.

وجارح: وكاسب، وباز، وصقر، وعُقاب، وفهد، شاهين، وزُرَّق، ويُؤيُو، وبَاشِق الأرض من اسم الكلب[١].

ونلاحظ كذلك أن الجاحظ يبدي تأملًا عميقًا فاحصًا في ملائمة المفردة لموضوعها من خلال الفروق اللغوية، ونورد بعض الآيات التي يوضح فيها الجاحظ دقة الانتقاء القرآني للمفردة:

يقول تعالى: " وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ " {الأعراف:٨٤}، فالصيغة القرآنية اختصت المطر لا الغيث، لأنه أقوى، وأغزر تدفق مياه، فناسب عقوبة المجرمين، وقد ذكره القرآن على سبيل الاستعارة في قوله عز و جل: " فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ" {الأنفال:٣٢}. وفي كلامه على نعمته في الأرض، قال عز وجل يدل البشر على سنته في الكون في ترعرع النبات: " وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ ما قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ" {الشورى:٢٨}، لأن النبات يريد رحمته التى تتجلى فى الماء الخفيف فينتعش، ولذلك لم يذكر المطر الذى يفرقه.

ومن هذا القبيل الفرق بين " الجوع والسغب " يقول عز شأنه " فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " {النحل:١١٢}. فتطلبت الإهانة و التهديد أقسى حاجة للطعام، فحق لهذه الكلمة أن تذكر في أصحاب النار، حيث يكون الجوع غاية الحاجة الفيزيولوجية للطعام، وفى أبشع طلب لهذه الحاجة، وليس كالسغب الذى اختير فى مكان الرحمة وبعث همّة المؤمنين لمساعدة الاخرين المحتاجين خصوصًا إذا كانوا يتامى[٢] :" أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ

[١] انظر التعبير الفني ١٥٥.

[٢] انظر البيان و التبين ١٢/١.

" {البلـد:١٤-١٥}. ولا يبـدو الجـاحظ متناقضًـا فهـو يؤكـد هنـا طرفـى الصياغة المفردة والنظم، ويرى أن فى المفردة محاسن تضاف إلـى محاسن النظم، فهى الوحدة المشكلة له[١].

ويطالعنـا الخطـابي بنظـرات فـي الـنظم القرآنـي فيقـول فـى رسـالته: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني[٢]" ، ويبدو أنـه يؤكد فكرة النظم، ويدافع عن أسلوب القرآن، إلا أنه تناول المفردة القرآنية، وقدم الشواهد وحللّها، لكنه لا يقول برأي صريح في جمال المفردة إلا نادرًا.

ويبدوا من كتاب "إعجاز القرآنى للباقلانى" أنـه يرى أن للكلمات ذاتها فصاحة خاصة، وأن تخيرُّها يدل على قدرة قائلها، وعلوّ بيانـه[٣]، يقول الباقلانى فى ذلك:

" قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة، والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانٍ مبتكرة، وأسباب مؤسَّسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرر.

ثم يقول: وأنت ترى جمال الكلمة من القرآن يتمثل فى تضاعيف كلام كثير، وهى غرة جبينه، وواسطة عقده، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه برونقه و جماله[٤]".

---

[١] انظر جماليات المفردة القرآنية ٤٥.

[٢] بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن ٢٧.

[٣] المعجزه الكبرى القرآن . ٧٥.

[٤] إعجاز القرآن للباقلانى ٦٤.

وممن كتبوا فى إعجاز القرآن من المتأخرين رأوا أن فى الكلمة فى القرآن بلاغة خاصة بأدائها، بمدها وغنِّها، وبأصواتها الموسيقية، وبنغماتها الحلوة، فلا يمكن أن يكون التآخي بينها وبين أخوتّها فى المعانى فقط، بل إن التآخي كما هو ثابت فى المعانى ثابت فى الموسيقى. ومن أنصار الرأي الذى نظر إلى فصاحة الكلمة الرافعى[١]- رحمه الله تعالى- في كتابه "إعجاز القرآن" فقد قال:"لما قرئ عليهم القرآن رأوا حروفه فى كلماته،وكلماته فى جمله، ألحانًا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة،قراءتها هى توقيعها[٢]."

ويقول أيضًا "ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها، فيما هى له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضًا، ولن نجُدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقة لها في النظم الموسيقى[٣]."

وفي عصرنا أخذت عائشة عبد الرحمن على عاتقها نصرة استقلال جمال المفردة القرآنية من خلال الظلال النفسية للفروق. وقد طبقت ذلك في عشر مسائل، مثل الفرق بين الرؤيا والحلم، والنأي والبعد، وتكاد تشتمل على معظم ما يظن فيه الترادف في القرآن[٤].

---

[١] المعجزه الكبرى القرآن ٧٦.

[٢] اعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعى ١٤٨.

[٣] المرجع السابق ١٥٦.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ٧٢ ، الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق عائشة عبد الرحمن ٢١٤.

٣- المفردة والتصوير القرآنى:

التصوير القرآنى يتدرج في مظاهر متعدده بوسائل مختلفة، فأول مظهر للتصوير، هو إخراج مدلول اللفظ من دائرة المعنى المجرد إلى الصورة المحسوسة والتخيلية، والمظهر الثانى: تحويل الصورة من شكل صامت إلى منظر متحرك حىّ، والثالث: تضخيم المنظر وتجسيمه حينما يكون الجو والمشهد يقتضيان ذلك، والوسيلة القريبة إلى تحقيق هذه المظاهر، لا تعدد أن تكون استعارة، أو مجازًا مرسلًا، أو تشبيهًا وتمثيلًا.

أما الوسيلة البعيدة ، التي هى سر إعجازه، فهى الكيفية اللطيفة الدقيقة التي تتآلف الكلمات على وقعها، وتتناسق الحروف والحركات وما يتبعها من مدود وشدّات على أساسها، فتخرج الكلمة والجملة في قالب من اللفظ وطريقة الأداء يبث فى الإحساس والخيال صورة مجسّمة حية للمعنى. هذه الألفاظ القرآنية تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك و إن لتناسق حروفها المعينة وتوالى حركاتها المتنوعه مدخلًا وأثرًا كبيرًا في هذا التصوير[١].

فالدقة في اختيار المفردات بأشكالها المحسوسة، ودلالاتها الفنية، تمتع الخيال والأبصار، والأسماع، وتدخل إلى النفس من منافذ شتى، وهذا هو الإعجاز في التعبير القرآنى، يبدأ من تكوين الحروف، فالكلمات، فالجمل، فالسياق، فالنص كله، على نحو مترابط ومتناسق[٢].

---

[١] من روائع القرآن البوطى ١٧٠ وما بعدها بتصرف.

[٢] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن عبد السلام الراغب ٣٨٩، انظر من بلاغة القرآن أحمد بدوى ـ ٥٧.

• دور المفردة القرآنية فى جمال الصورة

أراد الخالق عز وجل أن ييسرعلى عباده فهم القرآن، فجسّم لهم كثيرًا من المعاني الدينية، إذ نقلها البيان القرآني من حيّزالمجرد الذهني إلى الحيزالمادي المحسوس بواسطة الاستعارة، ومن هذا القبيل التعبير عن الهدى بالضياء، والضلال بالظلام، وكان هذا الأسلوب الحسي من عوامل استمرار تأثير الصورة القرآنية[١].

يقول سيد قطب :" وظاهرة أخرى تتضح فى تصوير القرآن وهى "التجسيم": تجسيم المعنويات المجردة، وإبرازها أجسامًا أو محسوسات على العموم"[٢]. فالمفردة المستعارة لديها القدرة على إبراز المعانى الذهنية في صور حسية مؤثرة، وكأنك تشاهدها،

ونقف هنا عند بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية ونتبين سر أختيارها، قال تعالى:" وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا " {الكهف:٩٩}، فمفردة "يموج" لا تقف عند حد استعارتها لمعنى "الاضطراب" بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس، احتشادًا لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر، ترى العين منه ما تراه في البحر الزاخر من حركة و تمّوج واضطراب، ولا تأتي مفردة "يموج" إلا بهذا المعنى، ودالة عليه[٣]، يقول

---

[١] جماليات المفردة القرآنية ١٠٢.

[٢] التصوير الفنى في القرآن سيد قطب . ٧٢.

[٣] انظر التعبير الفنى فى القرآن بكرى شيخ أمين ٢٠٣.

الرمانى:" أصل الموج للماء، وحقيقته تخليط بعضهم ببعض والاستعارة أبلغ، لأن قوة الماء فى الاختلاط أعظم "[١].

وقال تعالى:" وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ" {السجده:٢١} **"حقيقته لنعذبنّهم، والاستعارة أبلغ لأن إحساس الذائق أقوى ؛لأنه طالب لإدراك ما يذوقه"[٢]، "وللذواق فضل على غيره من الحواس، ألا ترى أن الإنسان اذا رأى شيئًا لم يعرفه شمّه، فإن عرفه، وإلا فذاقه لما يعلم أن للذوق فضلًا فى تبين الأشياء"[٣].**

فمفردة (لنذيقنهم) تجسّم للبصر معاناتهم للعذاب، لأنه جعل بدل الإحساس المستلذ بالطعام إحساس بالآلام، فحسّبة التذوق تبعث على التهويل والترهيب.

ولتتأمل مفردة "أفرغ" فى قوله سبحانه: "رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا" {الأعراف:١٢٦}**، وما يثيره في النفس من الطمانينة التى يحس بها من هدأ جسمه بما يُلقى عليه، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية. ينالها من منح هبة الصبر الجميل، ومن الدقة القرآنية في استخدام الألفاظ المستعارة أنه أستخدم "أفرغ" وهى توحى باللين والرفق عند حديثه عن الصبر وهو من رحمته[٤]"**

****

[١] النكت للرمانى ضمن ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن . ٩٣.

[٢] النكت فى إعجاز القرآن ٩٣.

[٣] كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ٢٧٥.

[٤] التعبير الفنى في القرآن الكريم ٢٠٤، وانظر النكت فى إعجاز القرآن ٩٠ انظر إعجاز القرآن للباقلاني ٢٤٤.

وقولـه تعالى:" وَضُـرِبَتْ عَلَـيْهِم الذِّلَّـةُ وَالمَسْـكَنَةُ" { البقـرة:٦١}، **يقول الشريف الرضى: "وهذه استعارة، والمراد بها صفة لشمول الذّلـه، وإحاطة المسكنة بهم كالخباء المضروب على أهله[١]".**

فقد ألقى الضوء على أهمية المفردة المستعارة من حيث الأثر النفسي المخزون فيها، فالذلّة والمسكنة مشاعر، وتجسيمها بفعل الضرب يوحى بظهورها للعيان وكأنها خيمة تضرب عليهم، والكلمة توحى بالعنف المناسب، وكأن الذلة والمسكنة أداة يضرب بها هؤلاء اليهود ضرباً[٢].

****

وقولـه تعالى:" فَصَبَّ عَلَـيْهِمْ رَبُّـكَ سَـوْطَ عَـذَابٍ" { الفجـر:١٣}، **مفردة "صب" توحى بالشدة والقوة والعنف، وهى تصور نزول العذاب عليهم بصورة حسّية كما يصب الماء بقوة وعنف.**

****

وقوله تعالى:" وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا" {مـريم:٤}، **فمفردة "اشتعل" لا تقف عند معنى "انتشر" فحسب، ولكنها تصور معنى الشيب دبيب وانتشاره فى الرأس بسرعة، كاشتعال النار وانتشارها ايضًا بسرعة حتى لا تبقى على شيء، كذلك يحرق الشيب ما يجاوره من الشعر حتى يأتى عليه ويلتهمه كله. يقول الرماني :" أصل الاشتعال للنار وهو فى هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة شيب الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا صارت فى الأنتشار والإسراع كاشتعال النار، وله موقع فى البلاغة عجيب، وذلك**

---

[١] تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضي ١١٥.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ١٠٥.

أنه انتشر فى الرأس انتشارًا لا يتلافى كاشتعال النار[١]" فالرماني وقف عند جمال مفردة (اشتعل) وما توحى إليه من السرعة فى الأنتشار للشيب، ومن الشمول الذى التهم كل شيء فى الرأس.

ويقف الشريف الرضي عند قوله تعالى "وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ" الأحزاب ٢٦، **إذ يقول: "ألقى الرعب في قلوبهم من أثقل جهاته، وعلى أقطع بغتاته تشبيهًا بقذفه الحجر إذا صكّت الإنسان على غفلة منه[٢]."**

"فهو يقترب من إيحاء أثر المفاجأة في اختيار هذا الفعل الذى يجسّم الإحساس بالرعب، وهو – كما نرى – لا يعنى بتفصيلات عن نوع الاستعارة بقدر ما يلمح إلى ظلال القذف الذى يهزّ قلوب المشركين، وقد أدرك مدلول السرعة والقوة فى الفعل، ونظير هذا قوله تعالى عن موسى عليه السلام "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي" {طه:٣٩} **فالإلقاء هنا يدلّ على القوة، ليوحى بالثبات، وينفي الضعف الذي تصورة النبي الكريم[٣]".**

ويريد القرآن أن يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين قال تعالى:" وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخرةَ" {الحج:١١}، **"إن الخيال ليكاد يجسم هذا "الحرف" الذى يعبد الله عليه هذا البعض من الناس، وإنه ليكاد يتخيّل الاضطراب الحسي فى وقفتهم، وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب؛ وإن هذه الصورة**

---

[١] **النكت فى إعجاز القرآن ٨٨.**

[٢] **تلخيص البيان فى مجازات القرآن ٢٦٤.**

[٣] **جماليات المفردة القرآنية ١٠٥-١٠٦ .**

لترسم حاله التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف التزعزع، لأنها تنطبع في الحس، وتتصل منه بالنفس[١]."

يقول الزمخشرى: "على حرف" على طرف من الدين لافى وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة[٢]."

ومفردة "أوزارهم" في قوله تعالى: "وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ" {الأنعام:٣١}، تجسيم الذنوب وكأنها أحمال تحمل على الظهور، وقوله تعالى:" وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ" {ابراهيم:١٧}، فقد وصف العذاب بأنه غليظ ، وهو من "التجسيم" بوصف المعنوى بمحسوس ، فقد نقل العذاب من معنى مجرد إلى شيء ذى غلظ وسمك من خلال مفردة "غليظ"، وقوله تعالى:" وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا" {الانسان:٢٧}، فمفردة "ثقيلًا" تنقل اليوم من زمن لا يمسك إلى شيء ذى كثافة ووزن[٣]

وكما أوضحنا أهمية المفردة المستعارة في التصوير الحسي بتجسيم الصورة، نُوضح أهمية المفردة المستعارة فى التصوير الحسي بتشخيص الصورة، فالتجسيم كما سبق " هو جزء من التصوير؛لأنه يقتصرعلى نقل المجرد إلى مجال المحسوس[٤]"،أما التشخيص: "فهو لون من ألوان

[١] التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ٤٥.

[٢] الكشاف الزمخشرى ٣/١١٥.

[٣] انظر التصوير الفنى فى القرآن ٨٢.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ١١٣.

"التخييل"، يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية، والانفعلات الوجدانية[١]".

ويقول صاحب المعجم الأدبى: "التشخيص": "إبراز الجماد أوالمجرد من الحياة من خلال الصورة بشكل كائن متميّز بالشعور والحركة والحياة[٢]".

ونريد هنا أن نبيّن بالأمثلة تأثير انتقاء المفردات المستعارة ؛لأن المفردة المشخصّة تستعار من الإنسان للجماد، لبث الروح والحياة في الأشياء، فتأمل ما توحي به مفردة " تنفس" من تصوير في قوله تعالى:" وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ " {التكوير:١٨}، هذا هو الصبح يتنفس، فيخّيل إليك هذه الحياة الوديعة الهادئة التى تنفرج عن ثناياه، وهو يتنفس، فتتنفس معه الحياة، ويدب النشاط في الأحياء ،على وجه الأرض والسماء[٣]، يقول الرماني:" وتنفس هاهنا مستعار، وحقيقته إذا بدأ انتشاره، وتنفس أبلغ منه، لما فيه من الترويح عن النفس[٤]".

ومن التشخيص، جعله جهنم ترى المجرمين من بعيد فتتغيّظ و تفور، قال تعالى: "إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ" {الملك: ٧-٨}. نتأمل مفردة "شهيقًا" التى تصور لجهنم صوتًا فظيعًا كشهيق الباكى، ومفردة "الغيظ" "التى تصف النار بصفة المغيظ الغضبان،الذى من شأنه أن يبالغ في الإنتقام ويتجاوزالغايات في الإيقاع

---

[١] انظر التصوير الفنى فى القرآن ٧٣.

[٢] المعجم الأدبى عبد النور جبّور ٦٧.

[٣] مباحث فى علوم القرآن لصبحى صالح . ٣٢٤، انظر التصوير الفنى فى القرآن ٧٣، من بلاغة القرآن ٥٧، التعبير الفنى فى القرآن ١٨٥.

[٤] النكت فى اعجاز القرآن . ٩٠.

والإيلام[١]. يقول الرماني:" شهيقًا حقيقته صوتًا فظيعًا كشهيق الباكى ، والاستعارة أبلغ منه وأوجز، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت، وتميّز من الغيظ" حقيقته: من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة أبلغ منه ؛ لأن مقدار شدة الغيظ على النفس محسوس ،مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ[٢]".

فالرماني يصور الحالة النفسية التي اكتسبتها النار المغتاظة وذلك من خلال مفردة "الغيظ".

ويقول صبحى الصالح :"مع أن تشخيص جهنّم هو الذي يجعل المشهد حافلًا بالحياة والحركة، فهي مغيظة محنقة تحاول أن تكظم غيظها حين ألقي إليها المجرمون، ولكأن منظرهم البشع :كان أشدُّ من أن تتحمله ، وتصبرعليه، فتلقتهم بألسنة لهبها، وهي تئزّ وتشهق، وبمهلها وقطرانها، وهي تغلى و تفور، حتى كاد صدرها يتفجر حقدًاعليهم،ومقتًا لوجوههم السّود، فليس في الصورة استعارة معقول لمحسوس فقط ، وإنما استعيرت لجهنم شخصية آدمية لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهي تشهق شهيق الباكين ، وهي تغضب وتثور[٣]".

ومن تشخيص القرآن للمعنى[٤] قوله تعالى" وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ " {الأعراف:١٥٤}، فقد وهب للجماد العقل

---

[١] انظر تلخيص البيان فى مجازات القرآن ٣٣٩.

[٢] النكت فى إعجاز القرآن ٨٧.

[٣] مباحث فى علوم القرآن ٣٢٥.

[٤] انظر التصوير الفنى فى القرآن ٧٥.

والحياة زيادة في تصوير المعنى وتمثيله للنفس، فنتصور الغضب هنا وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثّه على الانفعال والثورة، ثم سكت وكفّ عن دفعه وتحريضه[١]، يقول الزمخشري:" كأن الغضب كان يغريه على ما فعل[٢]".

وكثيراً ما يجتمع التخييل والتجسيم في المثال الواحد من القرآن فيصور المعنوي المجرد جسمًا محسوسًا، ويخيّل حركة لهذا الجسم، فقوله تعالى:"بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ" {الأنبياء:١٨}، فمفردة "تقذف" تصور الحق قذيفة خاطفة تصيب الباطل فتزهقه[٣]، فالمفردة توحي بهذه القوة التي يهبط بها الحق على الباطل، ومفردة "يدمغه" توحي بتلك المعركة التي تنشب بين الحق والباطل ، حتى يصيب رأسه ويحطمه، فلا يلبث أن يموت[٤]. يقول الشريف الرضي:" الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال وعن طريق الغلبة والاستعلاء ، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه[٥]".

وهكذا يجتمع في هذا المثل التجسيم والتشخيص والتخييل ، "وأما التجسيم ففي تصوير الحق بالقذيفة الثقيلة، وأما التشخيص ففي دمغ الحق الباطل وإزهاقه إياه، وأما التخييل ففي تصور نوع الثقل الذي تحدثه

---

[١] انظر التعبير الفنى فى القرآن ٢٠٤.

[٢] الكشاف ١٢٨/٢.

[٣] انظر التصوير الفنى فى القرآن ٨٣ و ما بعدها.

[٤] انظر التعبير الفنى فى القرآن ٢٠٣.

[٥] تلخيص البيان فى مجازات القرآن ٢٢٨.

حركة القذف ثم الدمغ ثم الإزهاق، فإنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل، وهي تتحطم وتقعقع[١]."

ويوازن الزمخشرى بين "دمعت" و"تفيض" الواردة في قوله عز وجل عن الرهبان:" تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ" {المائدة:٨٣}. **يقول:" معناه تمتلئ من الدمع حتى تفيض ؛ لأن الفيض أن يمتليء الإناء أوغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو إقامة المسبّب مكان السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنما تفيض بأنفسها: أي تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك:دمعت عينه دمعًا[٢]". إنه يردنا إلى الأصل اللغوى مما يجعلنا نتأمل في إسهام هذه المفردة في التصوير بالاستعارة.**

"وإيثار "تفيض" التي تتصل بالمياه الغزيرة المتدفقة، وكأن جفونهم ينابيع تفيض بالدمع الذى هو دلائل على عمق الإيمان، فالكثرة معبرة عن المضمون، كما أن الفيض يعبر عن استمرار اكثر مما يعبّر الامتلاء، فالفيض امتلاء بعد امتلاء[٣]".

*****

لقد قال تعالى في سورة الدخان في تصوير غذاء المشركين يوم القيامة : "إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ" {الدخان: ٤٣-٤٦} **فترى كل كلمة تبيّن**

---

[١] **مباحث فى علوم القرآن ٣٢٥.**

[٢] **الكشاف ١/٥٢١-٥٢٢.**

[٣] **جماليات المفردة القرآنية ٢٨٧.**

صورة مؤلمة مزعجة لما يتناولون ، ويشترك في الصورة نغمة الكلمات ونسقها وتآخيها.

فشجرة "الزقوم" شجرة لا تثمر إلا ثمرًا كريهًا ، لا ينقطع، فهي شجرة دائمة الإثمار، والتعبيربها في الآية فيه إشارة إلى أن طعام أهل النار من هذه الشجرة دائم ومستمرلا ينقطع[١].

وقوله تعالى :" طعام الأثيم" و"الأثيم" صيغة مبالغة من أثم، وصفة مشبهة تدل على حال دائمة مستمرة، فهي تدل على أنه فعل الإثم كثيرًا، ولذلك وصف بصيغة الصفة المشبهة، وهو حال دائمة عنده، فهذا الوصف يشير إلى أن سبب ذلك الجزاء هو الإثم الدائم الكثير الذي كان منه في الدنيا، فالجزاء من جنس العمل[٢].

وكلمة "المهل" والمهل رديء الزيت، ووصفه القرآن بأنه يغلي في البطون، ثم شبه هذا الغليان بغلي الماء في قوله "كغلي الحميم" وهو الماء الحار إذا بلغ درجة الغليان، فهم عندما يتناولون الطعام يحسّون بنيران تحرق أمعاءهم، فكأنما طعموا زيتًا ملتهبًا، ومفردة "المهل" تصور مشهد الزيت المغلي الذي بلغ أقصى درجات الحرارة، فغلي واشتد غليانه، ولتقريب الصورة للذهن يصور القرآن شدة غليان الزيت فى البطون، وتقلبه الذى يحدث ألمًا شديدًا في بطون أهل النار، بصورة حسية وهي غلي الماء، لكي تكون الصورة أكثر تمكنًا من النفس وتأثيرًا فيها.

*****

[١] المعجزة الكبرى لأبى زهرة ٨٨ بتصرف.

[٢] المرجع السابق ٨٨ بتصرف.

وتنقل الصورة المعنى الذهني وما يصاحبه من مشاعر وأحاسيس، كقوله تعالى:" بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ" {البقرة:٨١}. فهذه الصورة، تعبّر عن المعنى وهو اقتراف الذنب بلفظ "الكسب" للإيحاء بأن المذنب يقترف السيئة كأنه يكسبها كسبًا ماديًا، ويضيفها إلى حسابه، وإيحاء آخر، وهو أن الذنب أو المعصية فيها إغراء وجاذبية تشدّ مُقترفها إليها.

فالتصوير الحسي هنا، تصوير واقعي، مجسّم، يتغلغل فى أعماق النفس، ليصوّر ما فيها من مشاعر وقت ارتكاب المعصية بلفظة واحدة وهي "كسب" ولكن الصورة هادفة، وليست تصوير للواقع لإقراره، والاعتراف به وإنما لتوجيه هذا الواقع المنحرف والتحذير من ارتكاب المعاصي[١]. وجاءَ بمفردة "خطيئتة" لتصور الخطيئة شيئًا ماديًا، تتحرك حركة الإحاطة بهذا المذنب، لتحيط به من كل الجوانب.

وتعبّر الصورة عن "الموت"، وما يتعلق به من المعانى، وكأنه شخص حاضر، يطارد الإنسان طوال حياته حتى يقبض عليه، يقول تعالى:" قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ" {الجمعة:٨}.

فالصورة ترسم الموت شخصًا حيًا متحركًا يطارد الإنسان، وهو يهرب منه في خوف وذعر، ويظلّ الموت يطارده، والإنسان يجرى أمامه، حتى يلاقيه الموت أو يدركه[٢].

وتصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكنًا في النفس وتأثيرًا فيها، كما في مفردة "مكبًا" فى قوله تعالى :" أَفَمَنْ يَمْشِي

[١] انظروظيفة الصورة الفنية ١٢٠.

[٢] المرجع السابق ١٢٤.

مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" {الملك:٢٢}.

يقول الراغب : الكب إسقاط الشيء على وجهه[١]، وقيل:"أكب" على الشيء: أقبل عليه وشغل به، والرجل على وجهه: انقلب[٢].

فالأصل اللغوي يجعلنا نتأمل في إسهام هذه المفردة في التصوير، فهي تصور الكافر الذي أكب على المعاصى وشغل بها نفسه، بالذي " يمشى معتسفًا في مكان معتاد غير مستو فيه انخفاض وارتفاع، فيعثر كل ساعة فيخر على وجهه منكبًا[٣]". فهذا المثل للكافر الذى انكب على المعاصى فمثله كمثل من كب على وجهه، فالمفردة نقلت الصورة المعنوية إلي صورة حسية مليئة بالحركة المتعثرة والخبط والسقوط على الوجه.

*****

ومن الصور الذهنية المستمدة من واقع الحياة والتي لها رصيد في ذهن ونفس الانسان، وتحرك خياله وتأثر في شعوره، قوله تعالى:" مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً" {البقرة: ٢٤٥}.

فمفردة "يقرض" تصور "الإنفاق قرض لله، وهو تعبير لطيف يوحي للإنسان بأنه يملك الأموال وينفقها بل ويقرضها لربه قرضًا حسنًا ناميًا[٤]"،

---

[١] المفردات فى غريب القرآن ٦٩٥.

[٢] انظر المعجم الوجيز مادة "كبب".

[٣] الكشاف ٤/٤٦٦.

[٤] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ١١٤.

وللخيال أن يتصور من خلال السياق، حركة الأموال النامية، من خلال الصور الذهنية المختزنة للأموال بأنواعها، وحرك نمائها أو تكثيرها.

*****

ومن الألفاظ الموحية التي تصوِّر المنظر للعين، وتنقل الصورة للأذن، وتجعل الأمر المعنوى ملموسًا محسّا، قوله تعالى:" وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ" {يس: ٣٧}"، فكلمة " نَسْلَخُ" تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلًا قليلًا، ودبيب الظلام إلى هذا الكون في بطء، حتى إذا تراجع الضوء وظهر ما كان مختفيًا من ظلمة الليل[١] "، يقول ابن سنان الخفاجى:" لأن انسلاخ الشيء عن الشيء هو أن يتبرأ منه ويزول عنه حالًا فحالًا، وكذلك انفصال النهار عن الليل، والانسلاخ أبلغ من الانفصال لما فيه من زيادة البيان[٢]".

• جمال المفردة فى تصوير الحركة

التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، ومنه التصوير بالحركة التى تنقلها بعض مفردات القرآن، فتُصور الحركة القوية السريعة أو البطيئة ومالها من تأثير قوي على الحس والخيال، والفكر والوجدان، وما وراءها من دوافع نفسية، ومشاعر دفينة، وتحيل المعانى الذهنية والمشاهد والانفعالات النفسية إلى مشاهد حيّة، متحركة متجددة، مما يثير مشاعر القارئ فيزداد التفاعل النفسي مع المشاهد المصوّرة.

---

[١] التعبير الفني في القرآن ٢٠٣.

[٢] سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ١٢١.

"فالحركة مظهر من مظاهر الحياة والكون، وهي سمة من سمات الصورة في القرآن الكريم، فهي مظهر كوني كما أنها مظهر فني ، من هنا نلاحظ تأثيرها في النفس الإنسانية[١]"، وقد لاحظ بعض القدماء عنصر الحركة في الصورة مثل ابن قتيبة.

ونقف هنا مع بعض المفردات القرآنية ونوضح دور الحركة في الصورة: قال تعالى:" وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ" {القلم: ٥١}، فقد أشار ابن قتيبة إلى قوة الانزلاق في مفردة "ليزلقونك"، فقال:"يريد أنهم ينظرون إليك بالعداوة نظرًا شديدًا ، يكاد يزلقك من شدّته أي : يسقطك[٢]"، فالكلمة تصور عنصر الحركة بالنظر وارتباطها بالحركة النفسية التي تظهر ما في قلوب الكافرين من الحقد والعداوة الشديدة ، التي ظهرت بوضوح في حركة العيون، فكلمة "ليزلقونك" تربط بين الحركة الحسية والنفسية معًا[٣].

****

ومن المفردات التي شهد لها بتصوير الحركة القوية السريعة مفردة "الزلزلة" في قوله تعالى:" مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا " {البقرة: ٢١٤}.

" فقد أشار الرماني إلي الشدّة المكنونة في لفظ "وَزُلْزِلُوا" التي تنم عن اضطراب أعماق المؤمنين الذين انتظروا فرج ربهم[٤]"، فقد عبر عن هذا

---

[١] وظيفة الصورة الفنية في القرآن الراغب ٤٠٠.

[٢] تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة ١٢٩.

[٣] انظر وظيفة الصورة الفنية ٤٠١.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ١٥١، وانظر وظيفة الصورة الفنية ٤٠١.

الاضطراب قائلاً:" وهذا مستعار وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبّر به عن غلظ ما نالهم من الانزعاج فيهما، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد[١]"، فمفردة "وَزُلْزِلُوا" شبه فيها الاضطراب النفسي الشديد الذي أصابهم بالزلزال، فالزلزال حدث كوني ، فيه حركات شديدة وعنيفة متتابعة، وأحيانا مدمرة، بالإضافة إلى الارتجاج والانشقاق، فالمفردة دلّت دلالة قوية على الحركة المضطربة، وشدتها ونتائج الحركة في النفوس وتآكلها وانهيارها.

ومن المفردات أيضًا الدالة على الحركة " مُنقَلِبُونَ " في قوله تعالى:" قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ" {الشعراء:٥٠}، يقول الباقلاني في تعليقه عليها:" ومما يصور لك الكلام الواقع في الصفة تصوير ما في النفس، وتشكيل ما في القلب حتى تعلمه وكأنك مشاهده[٢]"، "فهو يرى هنا أن الحركة في الصورة المرسومة، تعبّر عن الحالة النفسية أوالانفعالات الوجدانية بحركة الانقلاب الحسية، حتى تغدو الحالات النفسية، وكأنها مشاهد فيها الحركة المتجددة[٣]". فمفردة "منقلبون" دالة على قوة الحركة و سرعتها، "فالتعبير بالانقلاب يدل على أسرع حركة تجسّم تغيّر رأي السّحرة بفرعون، والتماسهم حبل ربّهم[٤]".

****

كما أن الحركة تلمسها أيضًا في تصوير المفردات للمعانى الذهنية، فالهدى والضلال يجسّمان في النور والظلمات ، ثم تبدأ الحركة الحسية بعد التجسيم الفني يقول تعالى:" اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ

[١] النكت فى أعجاز القرآن ٩٠.

[٢] إعجاز القرآن للباقلانى ٢٤٤.

[٣] وظيفة الصورة الفنية ٤٠٢.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ١٥٣.

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ" {البقرة: ٢٥٧}، "**ففي الصورة تجسيم للظلمات والنور، ثم حركة خروج للمؤمنين والكافرين، ولكن المؤمنين يخرجون من الظلمات ويدخلون فى النور، والكافرين يخرجون من النور ويدخلون الظلمات**[١] "، **يقول سيد قطب "يستخيل الهدى والضلال نورًا وظلمة، ثم تبدأ عملية الإخراج المتخيلة، فتؤدى هذه الصورة المجسّمة المتحركة إلى تمثل أوضح وأرسخ للمعنى الخيالي المجرد**[٢]".

****

وهناك مفردات منقولة من حالة حسية إلى حالة معنوية، حتى تشاهد الحركة والخيال معًا كقوله تعالى:"سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ" { الأنعام: ١٥٧}، و"**الصدف**" – **في الأصل:– ميل في الحافر أو الخفّ في الفرس أو البعير، يجعله يميل في سيره ولا يستقيم**[٣]، "**والقرآن الكريم يستخدم هذا اللفظ لدلالته الحسية الأصلية، ودلالته المنقول إليها، لكي يصوّر حال الذين يعرضون عن الحق، ويصدفون عنه، لآفة أصابتهم، فجعلتهم يسيرون في الحياة بانحراف وميل، فهذه اللفظة ترسم صورة لأولئك المنحرفين عن الحق، فيها الهيئة والحركة، من خلال اقترانها في الذهن بمعناها الحسي**[٤]".

****

[١] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٤٠٣.

[٢] التصوير الفني في القرآن ٨٥ .

[٣] انظر القاموس المحيط: مادة صدف.

[٤] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٣٨٧.

ومن المفردات الكثيرة مفردة "سعى" في قوله تعالى:" وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعى" {القصص:٢٠}، والسعي: الإسراع في المشي، أى يسرع فى مشيه[١]. فالمفردة تصور سعي الرجل المؤمن، الذي جاء ليدافع عن موسى عليه السلام، "فالسرعة مطلوبة في هذا الموقف لانسجامها مع الدافع الشعورى القوى[٢]".

وكذلك قوله تعالى:" وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ" {عبس: ٨}،" عن ابن أم مكتوم الرجل الأعمى، إذ يصور لهفة هذا الأعمى إلى تعلم الدين، فليس وجود يسعى هنا إلا لغاية جمالية، فهى ترسم مشاعر من لا يعهد به إلا المشي المتعثر، لأنه أعمى[٣]".

ومن مفردات تصوير البطء والانسياب ما جاء في الآية الكريمة " وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ" {الرعد: ١٠}، فقد تأمل البوطي جمال الحركة في " سَارِبٌ" من خلال اللجوء إلى الأصل اللغوي، ف" سَارِبٌ" تعبر عن الوضوح والمسير الهادئ المناسب[٤]، وهو يقول "سارب بالنهار كلمة تصوّر لك الشيء إذ يسرب على وجه الأرض بارزًا، فأنت تقول: سرب الماء، أي سرى في سجيته على وجه الأرض متشبعًا يبرق ويلمع، والكلمة زيادة على ما فيها من جمال التعبير تصوّر لك شدة وضوح هذا الإنسان وظهوره مقابل شدة اختفاء ذلك الأخر واستتاره[٥]".

---

[١] تأويل مشكل القرآن ٢٧٤.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ١٥٤.

[٣] المرجع السابق ١٥٤.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ١٥٧.

[٥] من روائع القرآن البوطي ٢٤٢.

• تصوير الحركة الصوتية للمفردة

المقصود بنظام القرآن الصوتي اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومداته وغناته واتصالاته اتساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع ، ويستهوى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور[١].

فتتناسق حروف القرآن وكلماته، فإذا استمعت إلى حروف القرآن خارجة من مخارجها الصحيحه تشعر بتناسق رَصْف الحروف، بعضها بجانب بعض ، في الكلمات والآيات ، هذا حرف يَنقُر، وذاك يَصفِر، وهذا يَخفَى، وذاك يظهرَ،وهذا يَهمِس، وذاك يَجهَر[٢]، بالإضافة إلى التشكيلة الصوتية للمفردة نفسها، من توالى الفتحات والضمات ومواقع الشدات، وطبيعة الأصوات. قال الرافعي:" ولو تدبرت ألفاظ القرآن في نظمها، لرأيت حركاتها الصرفية واللغوية تجرى في الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضًا ، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوقةً لها فى النظم الموسيقي[٣]".

ومن المفردات التي ترسم هذه الصورة، مفردة " اثَّاقَلْتُمْ " في قوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ" {التوبة: ٣٨}، ادرس الأداء الفنّي الذي قامت به لفظة "اثاقلتم" بكل ما تكونت به من حروف، ومن صورة ترتيب هذه الحروف، ومن حركة التشديد على الحرف اللِّثوى "الثاء" والمدّ بعده، ثم

---

[١] مناهل العرفان الزرقانى ٢/٣٠٩.

[٢] انظر التعبير الفني في القرآن ١٩٠، مناهل العرفان ٣١٢.

[٣] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ١٥٦.

مجئ القاف الذي هو أحد حروف القلقة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان ويخرج صوتها من الأنف، ألا تجد نظام الحروف، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحت إليك بالمعنى؟[١]،" فيتصور الخيال ذلك الجسم المُثَّاقل، يرفعه الرافعون في جهد، فيسقط من أيديهم في ثِقَل[٢] "، كما أن البطء في تلفُظ الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون المثاقل، يقول سيد قطب:" لو أنك حذفت الشدة من الكلمات فقلت " تثّاقَلْتُمْ " لخفّ الجرس وضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها اللفظ واستقل برسمها[٣]".

والمقصود الأصلي هو استنكار تكاسل بعض المسلمين أمام داعي الجهاد في سبيل الله، "ولكن انظر إلى الأداة التعبيريه عن ذلك" اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ " لقد أخرج معنى الكسل الذي هو من مدركات العقل في صورة جرم ثقيل كلما حاولت أن ترتفع به إلى الأعلى انحط بك إلى الأرض[٤]".

نقرأ قوله تعالى:" وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ" {النساء: ٧٢}، فصورة التبطيئة أدّتها الكلمة " لَّيُبَطِّئَنَّ" بجرسها بالإضافة إلى ما أدته النونات، فاللسان ليكاد يتعثر، وهو يتخبط فيها، حتى يصل ببطء إلى نهايتها[٥].

ونقرأ قوله تعالى:"فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ" {آل عمران: ١٨٥}،" فلا ترى في المعجم غير كلمة "زُحْزِحَ" تصور مشهد

---

[١] انظر التعبير الفنى فى القرآن ١٨٦، وظيفة الصورة الفنية ٣٨٦.

[٢] التصوير الفني في القرآن ٩١.

[٣] المرجع السابق ٩١.

[٤] من روائع القرآن ١٧٨.

[٥] التصوير الفني سيد قطب ٩٢ بتصرف، انظر التعبير الفني في القرآن ١٨٦.

الإبعاد والتنحية بكل ما يقع في هذا المشهد من أصوات وما يصاحبه من ذعر الذي يمر بحسيس النارويسمعه ويكاد يصلاه[١]". فالمفردة صورت الزحزحة كاملة متحركة، "ولعل عنف الحركة يمثّل في نطق الحاء في الحلق، فالحاء الساكنة فيما يبدو تخرج من الحلق باحتكاك بجدرانه وهذا يمثل حركة الزحزحة العنيفة اللصيقة بالأرض[٢]".

وقد أشار الزمخشرى إلى تجسيم هذه الحركة المتكررة تبعًا لتكررالحروف، إذ يقول: الزحزحة:" التنحية والإبعاد وتكرير الزحّ، وهو الجذب بعجلة[٣]".

****

ألا تشعر بعنف لفظة الكبكبة في قوله تعالى :" فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ" {الشعراء: ٩٤} **حتى لتكاد تتصور أولئك المجرمين يكبون على وجوهم[٤]، فمفردة "كُبْكِبُوا" يحدث جرسها صوت الحركة التي تتم بها، "بالإضافة إلى انضمام الشفتين ثلاث مرات في هذه المفردة، مرة على الكاف لوجود الضم، ومرتين على الباء، لأنه حرف شفوى شديد، وهذا الانضمام يصور حركة تكوير الكافر، وهو يتدحرج حتى يصل إلى القعر، ويتجمع جسده كالكرة، وكما تتجمع الشفاه في لفظ هذه المفرده[٥]".**

---

[١] مباحث فى علوم القرآن ٣٣٥.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ١٦٢.

[٣] الكشاف الزمخشرى ١/٣٤٥.

[٤] مباحث فى علوم القرآن ٣٣٦ بتصرف.

[٥] جماليات المفردة القرآنية ١٦١.

ويذكر الزمخشرى سبب تكرير الحركة فيقول:" الكبكبة تكرير الكب، وجعل التكرير في اللفظ دليلًا في التكرير في المعنى، كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها[١]".

وحال الكافر الذي يتجرع صديده ولا يكاد يسيغه، في قوله تعالى:" وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ، يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ" {ابراهيم: ١٧}" فنستشعر في لفظ "التجرع" ثقلًا وبطئًا يدعوان إلى التقزز والكراهية[٢]". فلفظ "التجرع"له جرس في الأذن وظل في الخيال ، يؤديان المدلول بطريقة تصويرية تخييلية .

يقول الله تعالى:" يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا" {الطور: ١٣} "فالدّع" هو الدفع فى الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتًا غير إرادى فيه عين ساكنة هكذا: "اغْ" وهو في جرسه أقرب ما يكون إلى جرس "الدَّغْ"[٣]، لذلك فإن الصورة هنا تبنى من صوت الحرف أولًا للدلالة على تلك الصورة المرعبة بهيئتها وصوتها، وحالة المدفوع النفسية.

"فجرس الكلمة، رسم لنا هذه الصورة الحسية والنفسية، بكل ما فيها من هيئة وحركة وصوت، ثم إن تكرار جرس الكلمة في السياق، ولّد إيقاعًا موسيقيًا شديدًا، يتناسق من شدّة يوم القيامة وأهواله[٤]."

****

[١] الكشاف الزمخشرى ٣/ ٢٥٣.

[٢] مباحث فى علوم القرآن ٢٣٦.

[٣] التعبير الفني في القرآن الكريم ٩٥، التصوير الفني في القرآن الكريم ١٨٧.

[٤] وظيفة الصورة الفنية ٣٨٦.

ومن المفردات القرآنية الهادئة ، التي ترسم الصورة بجرسها الذي تلقيه في الأذن قوله تعالى:" إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ" الرحمن ٥٤، فكلمة (نهر) بجرسها الموسيقى ترسم ظلال اليسر والنعمة والطمأنينة، واللفظ ناعم هادئ، ملائم لهذه المعانى المرسومة[١]".

وقد يشتدّ إيقاع اللفظ ويقوى، للإيحاء بالمعنى الشديد، كالتعبير عن يوم القيامة: ب"الصَّاخّة" و"الطَّامَّة" ، والصاخة لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها. والطامة لفظة ذات دويّ وطنين، تخيّل إليك بجرسها المدوّي أنها تطم وتعم، كالطوفان يغمر كل شيء ويطويه"[٢]. وكلها ألفاظ شديدة الوقع على الأذن، قوية الجرس، تناسب أهوال القيامة وشدائدها.

*****

ومن المفردات الدالة على قوة الحركة وشدتها ما جاء في قوله تعالى:" وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ" {يوسف: ٢٣}، **فمفردة "غلقت" بجرسها الشديد، يوحى بإحكام إغلاق الأبواب، بشدّة وعنف، لاستكمال بناء الصورة، وكأننا نسمع صدى الأبواب المغلقة من جرس لفظة "غلقت"، ثم يأتى التعبير ب "هيت لك" ليكمل تصوير المشهد بكل ما فيه من حركات وأصوات ونعومة وإغراء كنعومة هذا التعبير "هيت لك" ورقة "هيت لك" ورقة إيقاعتها للدلالة على المعانى والحالات النفسية والمواقف[٣]**

---

[١] المرجع السابق ٣٩١.

[٢] التصوير الفنى في القرآن ٩٣.

[٣] وظيفة الصورة الفنية ٢٨٨.

وانظر إلى قوله تعالى: " إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا" {الانسان: ١٠-١١}، **ألا تجد مفردة "العَبوُس" فيها دقة بالغة حين صوَّرت نظرة الكافرين إلىّ ذلك اليوم، إنهم يجدونه عابسًا مُكفهرًّا، وما أشدّ اسوداده، فيه يفقد المرء الأمل والرجاء. وكلمة "قمْطريرًا" بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم، وفي كلمتي "النضرة والسرور" تعبير دقيق عن المظهر الحسّيَ لهولاء المؤمنين ، وما يبدوعلى وجوهم من الإشراق، وعمّا يملأ قلوبهم من البهجة**[١].

*****

والقرآن شديد الدقة فيما يختار من مفردات، تؤدى المعنى، استمع إليه قال تعالى:"وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ" {البقرة:٤٩}، **"فقد استخدم مفردة "يذبحون" مشددة الباء، ولم يستخدمها دون تشديد، مراعيا بذلك تصوير ما حدث أولًا، وكثرة ما حدث ثانيًا ، ونوع ما حدث ثالثًا**[٢]**،بالإضافة إلى ما يحمله لفظ "يذبح" من فظاعة المشهد، حيث يصور ذبح الأبناء بذبح الشاه، ولا نجد ذلك مستفادا إذا وضعنا مكانها مفردة "يقتلون"، لأن طرق القتل متعددة.**

*****

وهناك بعض المفردات التي تصورة المعنى بحروفها، يقول أحمد بدوي: "وهناك عدد كبير من ألفاظ، تصور بحروفها، مثل "الظاء والشين" في

---

[١] **من بلاغة القرآن ٥٢، التعبير الفني في القرآن ١٨٨.**

[٢] **التعبير الفني ١٨٨، و انظر من بلاغة القرآن ٥١.**

"**شواظ" في قوله تعالى:**"يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ" {الرحمن: ٣٥}، "**والشين والهاء" في "شهيقًا" في قوله تعالى:**"إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ" {الملك: ٧}، و"**الظاء" في تلظى في قوله تعالى:**" فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى" {الليل: ١٤}، و"**الفاء" في "زفيرًا" في قوله تعالى:**" إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا" {الفرقان: ١٢}، **فهذه الحروف تنقل إليك صوت النار مغتاظة غاضبة، وحرف "الصاد" في "صرصرًا" في قوله تعالى:**" إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ" {القمر: ١٩}، **يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة**[١]".

هناك بعض المفردات التي تلصق صورة المعنى وشكله بإحساسك، وإن لتناسق حروفها المعينة وتوالى حركاتها المتنوعة مدخلًا وأثرًا كبيرًا في هذا التصوير، من ذلك مفردة "تثقفنهم" في قوله تعالى:" فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" {الأنفال: ٥٧}.

قال الراغب:" الثَّقْفُ: الحذق في إدراك شيء وفعله، ويقال: ثقف كذا: إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقَافَة[٢]"، **قال الله تعالى:**"فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ" {الأنفال: ٥٧}،" **فقد أخرج معنى التلاقي الذي يكون بين المسلمين وأعدائهم، في صورة من ظل يتربص بشيء حتى ظفر به ووقع عليه، وعبر عن ذلك**

[١] من بلاغة القرآن ٦٠.

[٢] الغريب في مفردات القرآن الاصفهانى ١٧٣.

بقوله:"تثقفنهم" بمجموع ما تحمله هذه الكلمة من الدلالة ومن الصياغة اللفظية، ومن تناسق السكنات والحركات والتشديد البارز بينها[١]".

*****

والقرآن الكريم يرسم بجرس الكلمات صورة فنية ، لها إيحاؤها وتأثيرها في النفس ، على ضوء ما ذكرناه من نظام الحروف من حيث المخارج والصفات والحركات كقوله تعالى:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا" {النور: ٤٣}.

فكلمة يزجي بجرسها الموسيقي ، ترسم حركة السحاب البطيئة في السماء، وما فيها من امتدادات رخية متطاولة، بخلاف ما لو استعمل كلمة "دفع أو ساق".

"وكلمة "يزجي" تبدأ بالياء وتختم بها أيضًا ، والياء حرف لين رخو، كما أن الزاي من حروف الصفير والهمس، والجيم من حروف الشدة والجهر، ولكن ترتيبها في الكلمة، بين الزاي والياء، وحركة الكسر عليها خفّفت من شدّتها ، وجعلتها متناسقة مع ما قبلها وما بعدها.فهذه الكلمة بتنويع حروفها من حيث المخارج والصفات، وتنويع حركاتها، وتأليفها من مقطعين "يز– و جي" جعل إيقاعها رخيًا ممتدًا كرخوة حركة السحاب، وامتداده في السماء[٢]".

*****

ومن ذلك مفردة:" يصطرخون " في قوله تعالى:" وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ

[١] من روائع القرآن رمضان البوطى . ١٧٣.

[٢] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٣٨٩.

نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" **{فاطر: ٣٦-٣٧}.**

فيخيل إليك جرسها الغليظ ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما تُلقي إليك ظلَّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذى لا يجد من يهتم به أو يلبيه، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذى هم فيه يصطرخون[١].

●المفردات الطويلة فى القرآن

والتطويل في المفردة الواحدة ، يزيد من زمن عرض الصورة أمام العيون ، ويزيد أيضًا من تأثيرها في النفوس ، فالطول والقصر يرتبط بالمعنى المراد تصويره ، أو بالحالة أو الموقف[٢]. كقوله تعالى:" فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ" {البقرة: ١٣٧}، **وأيضًا قوله تعالى:"**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ" {النور: ٥٥}.

وقد قام الرافعي بتحليل هذه الظاهرة في المفردات القرآنية تحليلًا صوتيًا ضمن نظام العلاقات بين الحروف مخرجًا وصفةً وحركةً فقال:" وقد وردت في القرآن ألفاظ هي أطول الكلام عدد حروفي ومقاطع مما يكون مستثقلًا بطبيعة وصفه أو تركيبه ، ولو تأملناه لوجدناها من أخصر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقًا وأخفها تركيبًا ، إذ تراه قد هيأ لها أسبابًا عجيبة من تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم يجرها في نظمه إلا وقد وُجد ذلك فيها. كقوله:" وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ" {الأعراف: ١٢٩} ، **فهي كلمة واحدة من عشرة أحرف وقد جاءت عذوبتها من تنوع مخارج الحروف ،**

---

[١] **التصوير الفنى فى القرآن ٩٢.**

[٢] **وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٣٩٠.**

ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنها أربع كلمات، إذ تنطق على أربعة مقاطع، وقوله:" فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ " البقرة: ١٣٧ }، فإنها كلمة من تسعة أحرف، وهى ثلاثة مقاطع وقد تكررت فيها الباء والكاف، وتوسط بين الكافين هذا المد الذى هو سر الفصاحة في الكلمة كلها[١] "، وبهذا اكتسبت هذه الألفاظ الطويلة في بنائها حلاوة وعذوبة وخفّة كما قال الرافعي ، وإذا انتقلنا من البناء الشكلي للكلمة إلى مضمونها فإننا نلاحظ أن هذا التكوين الصوتي طولا وقصرًا مرتبط بالمعانى والأغراض المراد تصويرها[٢].

وقوله تعالى :"ليستخلفنهم في الأرض " {النور:٥٥} لقد وعد الله المؤمنين بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء ، ومفردة "ليستخلفنهم "تصور هذا المعنى ، وتوحي بطول مدة الخلافة في الأرض للمؤمنين.

قال ابن الأثير: كلمة "ليستخلفنهم" ثلاث كلمات جمعت فصارت كلمة واحدة صورة لا معنى، ألا ترى أن الأصل فيها (ليستخلف الله المؤمنين) [٣].

ويجب على من درس طول الكلمات القرآنية، أن يهتم بالدّلالة الصّرفية، وقيمة الاختزان للمعانى الكثيرة في بنية كلمة واحدة، وأن يلتفت إلى تجسيم شكل الكلمة للمعنى المبتغى، قال تعالى:" وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ" الأعراف ١٨٢، فإن لفظة "سنستدرجهم" توحى بطول المدّة مدة عدم انصياعهم، وخصوصًا فى صيغة

---

[١] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعي ١٥٨.

[٢] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٣٩٠.

[٣] الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور ابن الأثير ٥٩.

"استفعل " ففيها تصيير لهم، وحركة جعلية ممهّلة، وهذا ما يوحي به توالى المقاطع وتعدّدها مما يجسم طول فترة الغفلة التى يكون فيها الكافرون[١].

*****

[١] انظر جماليات المفردة القرآنية ١٨٥.

الفصل الثانى

١- دلالات المفردة القرآنية

• دلائل صيغ المفردة القرآنية

كل كلمة في القرآن الكريم ما دامت في موضعها فهي من بعض إعجازه ، تدبر الألفاظ على حروفها وحركاتها وأصالتها ولحونها، ومناسبة بعضها لبعض في ذلك والتغلغل في الوجوه التي من أجلها اختير كل لفظ في موضعه ، أوعُدلَ إليه عن غيره ، من حيث موافقته لمعنى الجملة ونظمها ، ومن حيث دلالته في نفسه ، وملاءمته لغيره ، ثم انظر في روابط الألفاظ والمعانى من الحروف والصيغ التى أقيمت عليها اللغة ووجه اختيار الحرف أو الصيغة[١]، وموضع ذلك في الغناء والإبلاغ في الدلالة من سواه[٢].

وقد ساعدت اللغة العربية باشتقاقاتها المختلفة على إغناء الجانب الدلالى للألفاظ، والإيحاء بالمعانى من وراء الدلالة اللغوية للكلمة.

وقد قام الزمخشرى بالربط بين الصيغة اللغوية ودلالتها النفسية في الصورة الفنية، فيتأمل صيغة التأنيث في "مرضعة" ففي قوله تعالى:" يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ" {الحج: ٢}. يرى الزمخشرى أن كلمة "مرضعة" أكثر إيحاء ودلالة من "مرضع"[٣] فيقول:"

---

[١] ونعني بالصيغة هنا ورود الكلمة على حالة معينة من بين الصيغ التى تجدها فى تصريف الكلمة– جماليات المفردة القرآنية ٢٤٠.

[٢] انظر إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعي ١٧٩.

[٣] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٤٠٥ بتصرف.

لم قيل "مرضعة" دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبى، والمرضع: التى شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل: مرضعة ؛ ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة[١]"

فالزمخشرى لا يتوقف عند الدلالة اللغوية للاسم المؤنث ، بل يلاحظ ما بين الاسمين من فروق في ظلال المعاني ، والايحاء بها من وراء الدلالة اللغوية، وهذه الظلال مقصودة في أثناء تصوير المشهد لاستحضارها أيضًا معه في رسم الأهوال والأحداث في يوم القيامة[٢].

*****

قال تعالى:"وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ"{الأنبياء: ٤٦} ، **فتأمل مفردة "المس" فقط وليس الإصابة، ولا الحرق، ولا وقود النار، وغير ذلك من عذاب جهنم،" فالمس يقال فيما يكون معه إدراك بحاسة "اللمس"[٣]، فالمفردة تصور ضآلة "المس" وبالرغم من ذلك فقد صرخوا قائلين : "ياويلنا"، "ومما يزيد من ضآلة المس، أنه نفحة أي : شيء حقير جدًا ، وتافه ضعيف لا يؤبه له ، فمفردة "نفحة" جاءت على صيغة اسم المرة ، أي نفحة واحدة ، فتدل بمادتها وصيغتهاعلى القلة والحقارة، كما أن صيغة التنكر تدل على التقليل والحقارة، وتدل أيضًا على التهكم بالكفار؛ لأن النفحة فى العادة والوضع**

---

[١] الكشاف ٣ /١١١٢.

[٢] وظيفة الصورة الفنية في القرآن ٤٠٥.

[٣] المفردات في غريب القرآن الأصفهانى ٧٦٧.

اللغوي تستعمل في الطيب والخير، مثل نفح الطيب والمسك، ونفح الرياح الناعمة[١]".

قال الراغب :"نفح الريح ينفح نفحًا، وله نفحة طيبة أي: هبوب من الخير، وقد يستعار ذلك للبشر"[٢] ، مثل قوله تعالى:" وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ" {الأنبياء: ٤٦}، **فمفردة "نفحة" قد استعيرت هنا للعذاب على سبيل التهكم والسخرية بالظالمين، كما في قوله تعالى:"** فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ" {الإنشقاق: ٢٤}، **فالتبشير يكون بالجنة والنعيم ، لا بالعذاب الأليم، فهذا على سبيل الاستعارة التهكمية، والذي يؤكد أن النفحة ليست مسكًا ولا طيبًا، وإنما جزء يسير من العذاب[٣].**

*****

ومن ذلك (سقى وأسقى) فالأول لما لا كلفة فيه ، ولهذا ذكر في شراب الجنة، نحو:"وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا" {الإنسان: ٢١}، **والثاني لما فيه كُلْفة، ولهذا ذكر في ماء الدنيا[٤]، نحو:"**لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا" {الجن: ١٦}.

قال الراغب: والسقى أن يعطيه ما يشرب، والاسقاء أن يجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء، فالإسقاء أبلغ من السقى، لأن الإسقاء هو أن يجعل له ما يسقى منه و يشرب، تقول أسقيته نهراً".

---

[١] التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية على صبح ٧٩ بتصرف.

[٢] المفردات في غريب القرآن الأصفهانى ٨١٦.

[٣] التصوير القرآنى للقيم الخلقية والتشريعية ٧٩ بتصرف.

[٤] الإتقان في علوم القرآن السيوطى ٦٢٢/١.

فمن السّقى: قوله تعالى:"وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورً" {الإنسان: ٢١}، **و قوله** "وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا"{ محمد: ١٥}، **وقوله** "وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ" {الشعراء: ٧٩}.

ومن الإسقاء: قوله تعالى:"وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا"{المرسلات:٢٧}،**وقوله تعالى** : "فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ"{الحجر:٢٢}، **أي جعلناه سقيا لكم** ، **وقال:**"نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا" {المؤمنون:٢١}،**والاستسقاء :طلب السُقى، أوالإسقاء**[١]، **قال تعالى:**"وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى" {البقرة:٦٠}.

*****

ومن ذلك "مد وأمدّ" قال الراغب: أكثر ما جاء الإمْدَادُ في المحبوب والمدُّ في المكروه. فمن المحبوب قوله تعالى:"وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ" {الطور:٢٢}، **وقوله تعالى:**"ويُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وبنِين"{نوح: ١٢ }، **وقوله:**" يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ" ال عمران ١٢٥، **والمدّ في المكروه[٢]، نحو:**"وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا" {مريم: ٧٩}، **وقوله:**"وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ" {البقرة: ١٥}.

ونتأمل صيغة "استوقد" في قوله تعالى:"مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا" {البقرة: ١٧}، **من المعروف أن السّين والتاء في "استفعل" تفيدان الطلب، كما تفيدان أشياء أخرى كالصيرورة والتحوّل، مثل:استغلظ أي صار غليظًا[٣] ، يقول أحمد بدوي:"تستوقفنا كلمة "استوقد" نارًا، فنتبيّن فيها**

---

[١] **المفردات في غريب القرآن الأصفهانى ٤١٥-٤١٦ بتصرف.**

[٢] **المفردات في غريب القرآن ٧٦٣، وانظرالإتقان في علوم القرآن ٦٢٣.**

[٣] **جماليات المفردة القرآنية ٢٥٠.**

حال رجل قد أحاطت به حلكة الظلام، فهو يطلب جاهدًا نارًا تضيء له مسالك السبيل، والسّين والتاء يدلان على هذا البحث القوي والطلب الجاد[١].

وقد لاحظت عائشة عبد الرحمن الفروق الدقيقة بين دلالات الألفاظ فتقول" ويجلو لنا كتاب العربية الأكبر، هذا الملحظ الدقيق من فروق الدلالات بين الألفاظ تختلف حركاتها أو صيغها من المادة الواحدة" من ذلك مثلًا أشتات وشتى: مادتها واحدة، والشت والشتات في اللغة التفرق والاختلاف، وقد وردت المادة خمس مرات في القرآن الكريم، ثلاث منها بصيغة شتى، في آيات:

قوله تعالى:"وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ" {طه: ٥٣}.

قوله تعالى:"إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى" {الليل: ٤}.

قوله تعالى:"تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ" {الحشر: ١٤}.

ومعنى الاختلاف، المقابل للائتلاف، هو ما يعطيه سياقها.

على حين يؤذن السياق بمعنى التفرق، المقابل للتجمع فى صيغة أشتات[٢]"بآيتى:

قوله تعالى:" يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ" {الزلزلة:٦ }.

---

[١] من بلاغة القرآن أحمد بدوي ٣٢.

[٢] الإعجاز البياني للقرآن عائشة عبد الرحمن ٢٣٢.

قولـه تعـالى:" لَـيْسَ عَلَـيْكُمْ جُنَـاحٌ أَن تَـأْكُلُوا جَمِيعًـا أَوْ أَشْـتَاتًا" {النور:٦١}.

النعمة والنعيم: اللفظان من مادة واحدة، وهما يلتقيان في الدلالة العامة لمادتهما المشتركة ، والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصيغتين، والمفسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتمله الدلالة المعجمية للمادة.

ونستقرئ الصيغتين في القرآن كله فنراه يفرق بينهما تفرقة واضحة: كل نعمة في القرآن إنما هي لنعم الدنيا على اختلاف أنواعها، يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعمالها، مفردًا وجمعًا، وعددها ثلاثة وخمسون موضعًا.

وأما صيغة النعيم فتأتي في البيان القرآني بدلالة إسلامية، خاصة بنعيم الآخرة، يطرد هذا أيضًا ولا يتخلف ، في كل آيات النعيم وعددها ست عشرة آية، منها خمس عشرة آية لا يحتمل صريح لفظها أي تأويل بغير نعيم الجنة:

قوله تعالى:"فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ" {الواقعة:٨٨-٨٩}

قولـه تعـالى:" أَيَطْمَـعُ كُـلُّ امْـرِئٍ مِّـنْهُمْ أَن يُـدْخَلَ جَنَّـةَ نَعِـيمٍ" {المعارج:٨٣}

قولـه تعـالى:"إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِـي نَعِـيمٍ (٢٢) عَلَـى الْأَرَائِـكِ يَنظُـرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤)" {المطففين: ٢٢-٢٤}

قوله تعالى:"وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ" {الشعراء: ٨٥}

قوله تعالى:" وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا" {الإنسان:٢٠}

قوله تعالى:"وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {المائدة: ٦٥}

قوله تعالى:" تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {يونس:٩}

قوله تعالى:" إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {القلم: ٣٤}

قوله تعالى:"إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعيم" {لقمان: ٨}

قوله تعالى:"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ" {الطور: ١٧}

قوله تعالى:"فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {الحج: ٥٦}

قوله تعالى:"فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {الصافات: ٤٣}

قوله تعالى:"فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ" {الواقعة: ١٢}

قوله تعالى:"وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ" {التوبة: ٢١}

وتبقى آية التكاثر، خطابا لمن ألهاهم التكاثر:

" ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ" {التكاثر: ٨}

لا تستطيع أمام اطراد تخصيص القرآن صيغة نعيم لنعيم الآخرة، أن نفسرها بنعمة من نعم الدنيا التي لا تأتي في البيان القرآني إلا بصيغة نعمة ونعماء و نِعَم، وسر البيان فيها، أن الذين ألهاهم التكاثرفي أعراض الدنيا عن التزود لأخراهم، سوف يسألون يوم يرون الجحيم، وسيرونها عين اليقين، عن النعيم الحق ما هو، وعندئذً يعلمون علم اليقين حقيقة

النعيم الذى أضاعوه، وألهاهم عنه التكالب على نعم الدنيا الفانية والتكاثر في أعراضها الزائلة[١].

*****

وقوله تعالى:" وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ" {العنكبوت: ٦٤}، قال الزمخشرى في تفسيره الفاصلة:" وهي بناء "الحيوان" زيادة معنى ليس في بناء الحياة ، وهي ما في بناء "فعلان" من الحركة والاضطراب، والحياة:حركة ، كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة ؛ ولذلك اختيرت على الحياة في هذا الموضع المقتضي للمبالغة "[٢].

وهناك وقفات يتأمل فيها الزمخشرى المفردة القرآنية، ويتحدث بمعيار لغوي بلاغي يؤكد المفهوم الديني ، وذلك على سبيل المثال في تفسيره البسملة ، إذ يقول:"وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم، ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إن الزيادة في البناء لزيادة المعنى"[٣].

وقرين هذا إشارته إلى موافقة الصيغة للواقع ، فإن فعل"نزل" يعنى عنده التواصل بالتدريج[٤]، وفي سورة البقرة نقرأ:"وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ" {البقرة: ٢٣}، ويقول فى

[١] الإعجاز البيانى للقرآن ٢٣٥-٢٣٦.

[٢] الكشاف الزمخشرى ٣/٣٦٤.

[٣] المرجع السابق ١/٥.

[٤] جماليات المفردة القرآنية ٢٤٣.

تفسيرها:" فإن قلت: لم قيل :(مما نزلنا) على لفظ التنزيل لا الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم[١]".

ويفرق بين (طاهرة ومطهرة) في الآية الكريمة:"وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ" {البقرة: ٢٥}، فهو يقول:" فإن قلت هلّا قيل طاهرة؟ قلت: في (مطهرة) فخامة لصفتهنّ، ليست في طاهرة، وهي الإشعار بأن مطهرًا طهرهنّ، وليس ذلك إلا الله عز وجل[٢]".

وهذا واضح من الصّيغة الصّرفية، فكلمة "مطهرة" تدل على التعدية، أما طاهرة فتدل على اللزوم[٣].

• الترادف والفروق

يتألق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه في دقة فائقة تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء، ولذلك لا تجد في القرآن ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا[٤]. وينفي الزركشي الترادف قائلًا:" على المفسّر مراعاة الاستعمالات، والقطع بعدم الترادف ما أمكن، فمن ذلك

---

[١] الكشاف الزمخشرى ١/٧٣.

[٢] المرجع السابق ١/٨٢.

[٣] جماليات المفردة القرآنية ٢٤٥.

[٤] انظر من بلاغة القرآن ٥١.

"الخوف" و"الخشية" لا يكاد اللغوى يفرق بينهما، ولا شك أن الخشية أعلى من الخوف، وهي أشدّ الخوف[١]".

وقد أشارت عائشة عبد الرحمن إلى الترادف فقالت: من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية واختلفت مذاهبهم فيها، منها ما يذهب إلى وجود الترادف فيجمع للمعنى أو الشيء الواحد ألفاظًا ذات عدد ، دون إشارة كونها لغات فيه ، وهذا هو مذهب "ابن السكيث ت ٢٤٤ هـ" في الألفاظ ، ولكن من اللغة ما يميز دلالة خاصة لكل لفظ من الألفاظ التي تطلق على الشيء الواحد، أو تتوارد على معنى من المعاني.

وصنف "أبو هلال العسكرى" كتابه "الفروق اللغوية" لبيان فروق الدلالات بين معانى ألفاظ مقول بترادفها، شهد التتبع الاستقرائى لألفاظ القرآن في سياقها، أنه يستعمل اللفظ بدلالة معينة[٢].

وسنعرض بعض المفردات التي تناولها علماء العربية، لنوضح أن القرآن الكريم ليس فيه ترادف ؛ لأن كل كلمة تحمل معنى خاصًا معيّنًا لا تحمله الكلمة الثانية.

ولما بين الكلمات من فروق، ولما يبعثه بعضها فى النفس من إيحاءات خاصة، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر[٣]، فقال:" قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" {الحجرات: ١٤}، فالإسلام غير الإيمان، والفرق بينهما شاسع، وشتان

[١] البرهان فى علوم القرآن ٤/٩٣.

[٢] الإعجاز البيانى للقرآن ٢٠٩ وما بعدها بتصرف.

[٣] من بلاغة القرآن ٥١.

بين التصديق الظاهري في الجوارح، وبين الإيمان القلبي الذي يقرن القول بالفعل[١].

ومن ذلك (جاء وأتى) فذكر الله "جاء" في موضع الأعيان في الماضي ، و"أتى" في موضع المعاني والأزمان.

انظر قوله تعالى:" وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ" {يوسف: ٧٢}، **لأن الصواع عين،**" وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ " {البقرة: ٨٩}، **لأنه عين، وقال:**"وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ" {الفجر: ٢٣}، **لأنها عينٌ، وأما قوله تعالى"**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ" {الأعراف: ٣٤}، **فلأن الأصل كالمشاهد ولهذا يقال حضرته الوفاة وحضره الموت، وقد فرق بينهما في قوله تعالى:**" قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " {الحجر: ٦٣-٦٤}، **فمفردة "جئناك" أي العذاب لأنه مرئي يشاهدونه، وكلمة "وأتيناك" حيث لم يكن الحق مرئياً.[٢]**

يقول الزركشى:" **فإن قيل: فقد قال تعالى:**" أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا" {يونس: ٢٤}، **وقال:**" فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا" {هود: ٦٦}، **فجعل الأمر آتيا وجائيًا، قلنا: هذا يؤيد ما ذكرناه فإنه كما قال: "جاء" وهم ممن يرى الأشياء قال :"جاء"، أي عيانا، ولما كان الزرع لا يبصر ولا يرى قال:"آتى"**[٣].

---

[١] التعبير الفنى فى القرآن ١٨٨.

[٢] انظر البرهان فى علوم القرآن ٨١/٤، والإتقان في علوم القرآن ٦٢٢/٢، والمفردات في غريب القرآن ٢١٢.

[٣] البرهان في علوم القرآن ٨١/٤.

وقال الراغب: الإتيان مجيء بسهولة، ومنه قيل السيل المارّ على وجهه: أتى وأتاوىّ. والمجيء أعمّ من الإتيان، والإتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير:- نحو قوله تعالى:"أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ" {النحل: ١}، "فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ" {النحل: ٢٦}، **أي بالأمر والتدبير**[١].

*****

ومن ذلك (عمل و فعل) فالأول لما كان مع امتداد زمان ، والثانى بخلافه.

والفرق بينهما كما يقول الزركشى:" أن العمل أخص من الفعل و كل عمل فعل ولا ينعكس، ولهذا جعل النحاة الفعل في مقابلة الأسم، لأنه أعم، والعمل من الفعل ما كان مع امتداد ؛ لأنه فَعِلَ وباب فَعِلَ لما تكرّر[٢]".

وقد اعتبره الله تعالى فقال:"يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ" {سبأ: ١٣}، **حيث كان فعلهم بزمانٍ، وقوله**"أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا" {يس: ٧١}، **فخلق الأنعام والثماروالزروع بامتداد، وقال:**"وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ" {النحل: ٥٠}، **حيث يأتون بما يؤمرون في طرفة عين، فينقلون المدن بأسرع من أن يقوم القائم من مكانه.**

وقال:"أَلَمْ تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ" {الفيل: ١}، "أَلَمْ تَرَكَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ" {الفجر: ٦} ، **وقوله:**"وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ" {ابراهيم: ٤٥}، **فإنها إهلاكات وقعت من غير بطء.**

---

[١] **المفردات في غريب القرآن ٦٠، ٢١٢ بتصرف.**

[٢] **البرهان ٨١/٤.**

وفي قوله:" وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" {البقرة: ٢٥}، **حيث كان المقصود المثابرةعليها لا الإتيان بها مرة أو بسرعة ، وبالثاني في قوله:"**وَافْعَلُوا الْخَيْرَ" {الحج: ٧٧}، **حيث كان بمعنى سارعوا، كما قال:"** فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" {البقرة: ٤٨}، **وقوله:"** وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ " {المؤمنون:٤}، **حيث كان القصد يأتون بها على سرعةٍ من غير توانٍ في دفع حاجة الفقير، فهذه هي الفصاحة في اختيار الأحسن في كل موضع[١].**

*****

ومن ذلك (الرؤيا والحلم) :ونستقرئ مواضع ورود اللفظين في القرآن فلا يترادفان.

استعمل القرآن "الأحلام" ثلاث مرات يشهد سياقها بأنها الأضغاث المهوشة والهواجس المختلطة، وتأتى في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع، دلالة على الخلط والتهويش لا يتميز فيه حلم من آخر: فى جدل المشركين قال تعالى:" بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ" {الأنبياء: ٥}، **وعلى لسان الملأ ، من قوم العزيز، حين سألهم أن يفتوه في رؤياه:"**قَالُواأَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ" {يوسف: ٤٤}

وأما الرؤيا، فجاءت في القرآن سبع مرات، كلها في الرؤيا الصادقة'وهولايستعملها إلا بصيغة المفرد، دلالة على التميز والوضوح والصفاء. من بين المرات السبع، جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء، فهي من صدق الإلهام القريب من الوحى.

---

[١] البرهان للزركشى ٤/٨٢-٨٣ ، انظر الإتقان السيوطى ١/٦٢٣-٦٢٤.

رؤيا إبراهيم عليه السلام في آية الصافات:" وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ" {الصافات: ١٠٤-١٠٥}.

ورؤيا يوسف إذ قال له أبوه:"قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ" {يوسف: ٥}. **نتابع سياقها في السورة وقد صدقت وتحققت:**" وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا " {يوسف: ١٠٠}

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الإسراء:"وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ"{الاسراء: ٦٠} ، **ورؤياه فى الفتح:**"لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ" {الفتح: ٢٧}

فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا من الأنبياء، والمرتان الأخريان في رؤيا العزيز وقد صدقت، وفي آياتها عبرعنها القرآن مرتين على لسان الملك بالرؤيا، لوضوحها في منامه وجلائها وصفائها، وأن بدت للملأ من قومه هواجس أوهام وأضغاث أحلام.

"وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ" {يوسف: ٤٣-٤٤}.

وتمضي القصة في سياقها القرآني ، فإذا رؤيا الملك صادقة الإلهام ، وليست كما بدت للملأ من قومه أضغاث أحلام[١].

[١] **الإعجاز البيانى للقرآن ٢١٦ وما بعدها.**

*****

ومن ذلك (القعود والجلوس): فالقعود يكون معه لُبْثَةٌ ، والجلوس لايعتبرفيه ذلك ، ولهذا تقول قواعد البيت ، ولاتقول جوالسه ؛لأن مقصودك ما فيه ثبات فيلزمها اللُبْث، ويقال:جليس الملك، ولايقال:قعيده ؛لأن مجالس الملوك يستحب فيها التخفيف،ولهذا استعمل الأول في قوله:"مَقْعَدِ صِدْقٍ" {القمر٥٥ }، **ولم يقل مجلس للإشارة إلى أنه لازوال له، وقوله تعالى:**"مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ"{آل عمران:١٢١}، **فإن الثبات هو المقصود، بخلاف قوله تعالى:**"تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ"{المجادلة:١١}،**إشارة إلى أنه يُجلس فيه زمانًا يسيرًا ليس بمقعد**[١].

*****

ومن ذلك (الشح والبخل) والشح :هوالبخل الشديد[٢]**، قال الراغب الشُّحُّ: بخل مع حرص ، وذلك فيما كان عادة**[٣]**، قال تعالى:**" وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ" {النساء: ١٢٨}، **وقال سبحانه"** وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" {الحشر: ٩}، **يقال رجل شحيح وقوم أشحة، قال تعالى:** (أشحة على الخير)، "وأشحة عليكم" { الأحزاب: ١٩}.

وقد ورد لفظ البخل في القرآن في إثنى عشر موضعًا وهي كالآتى: سورة الليل ٩٢، ال عمران ٣ ، والتوبة ٩، محمد ٤٧، محمد ٤٧، محمد ٤٧، محمد ٤٧، ال عمران ٣، النساء ٣٧، الحديد ٥٧، وورد لفظ (الشحّ) في

---

[١] **البرهان في علوم القرآن ٨٣/٤ بتصرف، وانظر الإتقان فى علوم القرآن ٦٢٤/١.**

[٢] **البرهان في علوم القرآن ٧٩/٤، وانظر الإتقان ٦٢٢/١.**

[٣] **المفردات في غريب القرآن ٤٤٦.**

خمسة مواضع وكلها تدل على أشدّ البخل حتى أصبح عادة متمكنة من نفوسهم، فالنفس هي المتهمة في القرآن بالشح.

ومن ذلك قولهم "النَّضْح" للماء ونحوه و"النضخ"، "فالنضخ" أقوى من "النضح" قال تعالى:"فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ" {الرحمن: ٦٦}، **فجعلوا "الحاء" لرقتها للماء الخفيف، و"الخاء" لغلظها لما هو أقوى منه**[١].

ومن ذلك (بجس وانفجر): يقال:" بجس الماء وانْبجَسَ: انفجر، لكن الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ولذلك قال عز وجل:" فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" {الأعراف: ١٦٠}، **وقال في موضع آخر:**"فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" {البقرة: ٦٠}، **فاستعمل حيث ضاق المخرج اللفظان**[٢] **"فانبجست، فانفجرت"، وقال تعالى:**"وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا" {الكهف: ٣٣}، **وقال:**" وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا" فقال: "فجرنا" **ولم يقل: "بجسنا" لأن الانفجار هنا يخرج من شيء واسع كما يدل السياق.**

*****

ومن ذلك (ملجأ – مغارة – مُدَّخل)

قال تعالى:"لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ" {التوبة: ٥٧}

يحسب صاحب النظرة العجلى أن هذه الكلمات الثلاث:" ملجأ، مغارات، مدخل، مترادفة المعنى، ولكنها في الحقيقة ليست كذلك ، بل كلّ منها

[١] انظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها جلال الدين السيوطى ٤٢/١.

[٢] المفردات في غريب القرآن ١٠٨.

تصّور في الذهن شكلًا معينًا للملاذ الذى يبحث عنه المنهزم الخائف ، بدءا من الشكل الطبيعي المألوف وهو الملجأ العادى من دار أو غرفة أو جماعة من الناس، ثم يتدرج إلى الشكل الذي لايألفه ويرضيه إلا من اشتد خوفه وهو"المغارة" في باطن الأرض أو بطن الجبل، ثم إلى الشكل الذي هو أبعد في القبول والإلف من كليهما ؛ لما فيه من المشقة البالغة وهو: "المدّخل" أي : المكان الضيق الذي لا يستطيع هذا الخائف أن يقتحمه إلا بجهد ولا يكاد أن يستقر فيه إلا تضاؤلا والتصاقا. وانظر كيف تؤدى مفردة "مدّخلًا"هذه الصورة وتجسمها في الحس بوزنها وجرسها،وشدة الدال فيها[١].

*****

ومن ذلك (النَّصَب و اللُّغُوب) : قال تعالى:"لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ " {فاطر: ٣٥}

إذا نظرنا إلى المعنى اللغوي لمفردة:"النصب"[٢] تجد أنها بمعنى:التعب،ومفردة: "اللغوب"[٣] بمعنى: التعب والإعياء ، وبالرغم من ذلك لا يوجد بينهما ترادف،"فالنصب هو التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر، المزاول له، أما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النّصب، فالنّصب نفس المشقة والكلفة والتعب، واللغوب نتيجته وما يحدث من الكلال والفترة[٤].

*****

[١] انظر من روائع القرآن، البوطى ١٧٥.

[٢] انظر مختار الصحاح مادة "ن ص ب" ، و المفردات فى غريب القرآن ٨٠٧.

[٣] انظر مختار الصحاح مادة "ل غ ب " ، و المفردات فى غريب القرآن ٧٤٢.

[٤] التعبير الفني في القرآن الكريم ١٨٨.

"وعبر القرآن عن القوة العاقلة في الإنسان بألفاظ ، منها : (الفؤاد واللب والقلب)، واستخدم كلا في مكانه المقسوم له ، "فالفؤاد" في الاستخدام القرآني يراد به تلك الآلة التي منحها الله الإنسان؛ ليفكر بها ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة، كالسمع و البصر، قال تعالى:" إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا"{الإسراء: ٣٦}، **ونجد ذلك واضحًا فيما وردت فيه تلك الكلمة من الآيات[١]". واسمع إلى قوله تعالى:"** قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ" {الملك: ٢٣}، **وقوله تعالى:"** ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى" {النجم: ١١}، **وقوله تعالى:"** وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ " {الأنعام: ١١٣}، **وقوله تعالى:"** نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ" {الهمزة: ٦-٧} **وقوله تعالى:"** مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ"{ابراهيم:٤٣}.

وقفت عائشة عبد الرحمن في تفسيرها البيانى لسورة "الهمزة" تعلّ استعمال كلمة "الأفئدة" بدلاً من القلوب الواردة في قوله تعالى:" نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ " {الهمزة: ٦-٧}، **فرأت أن كلمة "الأفئدة لم تستعمل هنا مراعاة لنسق الفاصلة فحسب، وإنما لتخليص الأفئدة من حس العضوية ، التي تدخل على دلالة لفظ القلوب، فيما ألف العرب من لغتهم، ولا يزال استعمال القلب بمعناه العضوي جاريًا في اللغة دون استعمال الفؤاد بهذا المعنى[٢].**

---

[١] من بلاغة القرآن ٥٣.

[٢] انظر التفسير البيانى عائشة عبد الرحمن ١٨١/٢.

فاستعمال "الأفئدة يوحى بتجاوز العذاب الحسي إلى العذاب النفسي ، وهذا تصوير منتهى العذاب وبذلك تحقق الفاصلة التناسب المعنوي في تصوير العذاب إلى جانب التناسب الموسيقي للإيقاع[١].

أما " اللب" ولم يستخدم في القرآن إلا مجموعًا ، فيراد به التفكيرالذي هو من عمل تلك الآلة، نجد هذا المعنى في قوله تعالى " وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ " {البقرة: ١٧٩}، **وقوله تعالى** " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ "{آل عمران: ١٩٠}، **وقوله تعالى** " يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" {البقرة: ٢٦٩}.

أما القلب، وهو أكثر هذه الكلمات دوراناً في الإستخدام القرآني فهو بمعنى أداة التفكير في قوله تعالى : " وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " {الاعراف: ١٧٩ }، **وقوله تعالى**: " رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ {آل عمران: ٨}، وقوله : " أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ" {الحج: ٤٦}.

وهو أداة الوجدان ، كما تشعر بذلك في قوله تعالى : " إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " { الأنفال: ٢}، وقوله تعالى : " إِذْ جَاءُوكُم

[١] انظر وظيفة الصورة الفنية في القرآن ٣٩٦.

مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا " {الأحزاب: ١٠}.

وقوله تعالى : "يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ " {النازعات: ٦-٨}، وقوله تعالى : " هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ " {الفتح: ٤}، **وقوله تعالى** : " الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ " {الرعد: ٢٨}.

وهو أداة الإرادة كما يبدو ذلك في قوله تعالى : "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" {القصص: ١٠}، **وقوله تعالى**: "وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ " {الأنفال: ١١}، **وقوله تعالى** : "وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا " {الأحزاب: ٥}.

فالقرآن يستخدم القلب فيما تطلق عليه اليوم كلمة العقل ،وجعله في الجوف حينًا في قوله تعالى : "مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ " {الأحزاب: ٤}، **وفي الصدر حينًا في قوله تعالى** : "وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ"{ الحج: ٤٦}، **تعبيرًا عما يشعر به الإنسان عندما يلم به وجدان، أو تملؤه همة وإرادة[١].**

*****

[١] انظر من بلاغة القرآن ٥٤.

• سر اختيار الكلمة

قد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر ليدرك السر في إيثار كلمة عن أخرى.

ومن ذلك قوله تعالى "وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ" {البقرة: ١٧٦}، **فقد يتراءى أن وصف الشقاق وهو الخلاف، " بالقوة" أولى من وصفه ب " البعد" ولكن المتأمل يجد أن وصفه ب " البعد" يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذي اختاره القرآن**[١].

وقوله تعالى "وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ" {هود:٤٤}، **فكلمة " ابلعي" واقعة موقعها، وهي أدق من كلمة "اشربي، امتصي" مثلًا، "فهي هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها وهو أن تبتلعه بسرعة[٢]"، أما كلمة امتصي فهي لا تدل على الإسراع في التشرب.**

*****

ونرى القرآن يقول: " أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ" {التكاثر: ١-٢}،" **فلماذا زرتم. ... لماذا لم يقل سكنتم المقابر، أو دخلتم المقابر، أو حللتم في المقابر، أو ملأتم المقابر، ولماذا قال " زرتم"؟ ليلفت النظر إلى أن المقام في القبر مقام مؤقت وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا دخول سكنى.**

---

[١] انظر من بلاغة القرآن أحمد بدوى ١٧٦.

[٢] المرجع السابق ٥٠.

وتدل على ذلك آية ثانية عن الموت "قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ " {آل عمران: ١٥٤}**، فيصف مدة الموت بأنها مجرد ضجعة وأن القبر مجرد " مضجع" والضجعة بعدها انتباه وقيام. وتلك دقة بالغة في التعبيرتجعل كل كلمة مقصودة لضرورة لا يمكن استبدالها[١]."**

*****

وقوله تعالى" وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"{آل عمران:١٨٠} **سياق الآية يتحدث عن " الذين يبخلون" والبخل – ها هنا– منع الزكاة " وقوله " سيطوقون" "يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم، كهيئة الأطواق المعروفة[٢]، وذلك على التشبيه[٣]، وهذا تصوير وتجسيم للزكاة التي هي حق الله وكأنها طوق يلتف حول عنق البخيل.**

يقول الشعراوي" أي أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقًا في رقبة البخيل، وساعة يرى الناس الطوق في رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله في ماله[٤]".

---

[١] القرآن كائن حى د/ مصطفى محمود ٥/١٦٠ط دار المعارف.

[٢] المصحف المفسر لابن جرير الطبرى ٢/٧٣.

[٣] المفردات فى غريب القرآن ٥٣٢.

[٤] تفسير الشعراوى ٢٤/١٩١٥.

وقوله:" ولله ميراث السموات والأرض"، الميراث المعروف: هو ما انتقل من ملك إلي ملك[١]، أى وله ما فيها مما يتوارثه أهلها من مال وغيره، فمالهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله[٢]، فمفردة "ميراث" بدلالتها الحسية تصور انتقال المال إلى مالكيه من الورثة، وكل هذا سوف يصبح ميراثًا لله وحده.

وهذا المال الذي منعه البخيل سيذهب لورثته في الدنيا ويعذب به في الآخرة.

ويقول أحمد بدوى: "وكلمة " ميراث" في قوله " وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ " {الحديد: ١٠}، واقعة موقعها، وهي أدق من كلمة "ملك" في هذا الموضع، لما أن المال يرى في أيدي مالكيه من الناس، ولكنه سوف يصبح ميراثًا لله [٣].

*****

يكشف الخطابي عن العامل النفسي في تفضيل مفردة على أخرى[٤]، قال تعالى: " وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ" {المؤمنون: ٤}، وقولهم: "إن المستعمل في الزكاة المعروض لها من الألفاظ الأداء والإيتاء والإعطاء، ونحوها كقولك: أدّى فلان زكاة ماله، وآتاها، وأزكى ماله، ولا يقال فعل فلان الزكاة ، ولا يعرف ذلك في كلام أحد ، فالجواب أن هذه العبارات لا تستوي في مراد هذه الآية ، وإنما تفيد حصول الاسم فقط ، ولا تزيد على

[١] المصحف المفسر لابن جرير الطبرى/ ٧٣.

[٢] الكشاف ٢٤٣/١.

[٣] من بلاغة القرآن ٥٥.

[٤] انظر اعجاز القرآن للخطابى ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ٣٨.

أكثر من الإخبار عن أدائها فحسب، ومعنى الكلام ومؤداه المبالغة في ادائها ، والمواظبة عليه حتى يكون ذلك صفة لازمة لهم، فيصير أداء الزكاة فعلًا لهم مضافًا إليهم، يعرفون به ، فهم له فاعلون[١]".

فالكلمة لها تأثير نفسي يوحي بمعانٍ سامية، فمفردة "فاعلون" تدل على تجدد الحركة، فكأن أداء الزكاة أصبح من أفعالهم المعتادة ، وهذا أقوى في الدلالة على المعنى ، فهم فاعلون للزكاة باستمرار دون توقف.

*****

وقوله تعالى: " وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ" {البقرة: ٤٥-٤٦} .**استخدام كلمة "يظنون" في الآية الكريمة قوية في دلالتها على مدح هؤلاء الناس ، الذي يكفي لبعث الخشوع في نفوسهم، وأداء الصلاة والاتصاف بالصبر، أن يظنوا لقاء ربهم، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا[٢]؟**

استخدم القرآن كلمة التراب ، ولكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذي لا يقوى على عصف الريح استخدم الكلمة الدقيقة وهي "الرماد"، فقال:" مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ"{ابراهيم: ١٨}، **كما أنه آثرعليها كلمة "الثرى"، عندما قال:**"تَنزِيلا مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى" {طه: ٤-٦}، **لأنه يريد – على ما يبدو**

---

[١] جماليات المفردة القرآن ٤٧، وانظر إعجاز القرآن للخطابى ٣٨.

[٢] من بلاغة القرآن ٥٦.

من سياق الآيات الكريمة – الأرض المكونة من تراب ، وهي من معانى الثرى ، فضلًا عما في اختيار الكلمة من المحافظة على الموسيقى اللفظية في فواصل الآيات[١].

*****

كذلك نلاحظ دقة اختيار اللفظ في بناء الصورة ، للدلالة على الموقف والحالة ، كقوله تعالى:"وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ "{يوسف: ٢٣}، فالفعل "راود" من الفعل الثلاثى "راد يرود" وهو بمعنى الذهاب والمجيء المتكرر، و"الرود" الطلب ومنه الإرادة التي هي المشيئة[٢].وقد اعتمد تصوير الموقف بين يوسف وإمرأة العزيز على هذا الفعل بكل ما يحمله من دلالات متنوعة ، منها إرادة وتصميم امرأة العزيز على تنفيذ طلبها، وتكرارها للطلب[٣].

قال الراغب:" والإرادة منقولة من رَادَ تَرُودُ: إذا سعى في طلب شيء ، والإرادة في الأصل: قوة مركبة من شهوة وحاجة وأمل، وجعل اسمًا لنزوع النفس إلى الشيء مع الحكم فيه بأنه ينبغى أن يفعل أولايفعل، وقيل: المراودة:أن تنازع غيرك في الإرادة ، فتريدغير ما يريد[٤]."

*****

وقد اختار القرآن الكلمة الدقيقة المعبرة عن سلوك الإنسان في الأرض من كثرة القتل، بمفردة "يسفك" في قوله تعالى:" قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

---

[١] من بلاغة القرآن ٥٣.

[٢] القاموس المحيط مادة "رود".

[٣] وظيفة الصورة الفنية في القرآن ٢٨٨ بتصرف.

[٤] المفردات في غريب القرآن ٣٧١.

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ" {البقرة: ٣٠}، **والسفك فى الدم: صبُّهُ[١]، فمفردة "يسفك" قوية في دلالتها على كثرة القتل،فهي تستدعى صورة مدلولها الحسيه، الذى يصور إراقة الدماء وتدفقها بغزارة وقوة، فكلمة "يسفك" واقعة موقعها وهى أدق من كلمة "يقتل".**

*****

ومن الكلمات التي تجعل المعنى مصورًا تكاد تراه بعينك وتلمسه بيدك ، مفردة "يدسه"في قوله تعالى:" وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ"{النحل:٥٨-٥٩} **ومعنى كلمة:"دسَّ" دسَّ الشي في تراب أخفاه[٢]، قال الراغب: الدَّسُّ": إدخال الشيء في الشيء بِضرب من الإكراه[٣].**

فسياق الآية يتحدث عن الذي بشر بالأنثى، والحالة النفسية التى ألمَّت به من الكآبة والحزن، فهو يستخفى من القوم من سوء المبشر به، ويحدث نفسه أيمسك ما بشر به على هوان وذل ، أم يخفيه في التراب ، فمفردة "يدسه" ترسم الموضوع بظله الذى يلقيه فى الخيال ، فتصور الحركة الحسية والنفسية معًا.

*****

"أرأيت لونًا أزهى من الوجوه السعيدة الناظرة إلى الله، ولونًا أشد تجهما من سواد الوجوه الشقية الكالحة الباسرة في قوله تعالى:"

---

[١] المفردات في غريب القرآن ٤١٣.

[٢] مختار الصحاح مادة د س س.

[٣] المفردات في غريب القرأن ٣١٤.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ" {القيامة: ٢٢-٢٥}، **لقد استقلت في لوحة السعداء لفظة "ناضرة" بتصوير أزهى لون وأبهاه ، كما استقلت في لوحة الأشقياء لفظة "باسرة" برسم أمقت لون وأنكاه "[١]. فهنا تقابل بين الصورتين ، فالأولى ترسم الوجوه المشرقة التي تتوقع النعمة والكرامة من الله ، والثانية ترسم الوجوه العابسة الشاحبة "التي تتوقع أن يفعل بها فعل هو في شدته وفظاعته(فاقرة) داهية تقصم ظهورهم[٢]، "فالمقابلة رسمت الصورة بالألفاظ، فصورت السعداء والاشقياء بدقة بالغة .**

*****

وتقع الرهبة في صدرك وأنت تسمع لاهثًا مكروبًا صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة "تحيد" بدلا من "تنحرف" أو "تبتعد"[٣][٣] في قوله:" وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ" {ق: ١٩}.

*****

[١] مباحث في علوم القرآن ٣٣٥.

[٢] الكشاف ٤/٥٣٠.

[٣] مباحث في علوم القرآن ٣٣٥.

٢- ظلال المفردة والمعنى

• ظلال الدلالة النفسية

ونوضح هنا دقة القرآن في انتقاء الكلمات المناسبة للمواقف من خلال إيحاءات المفردة وظلالها النفسية.

فقد حض القرآن الكريم على طاعة الوالدين في قوله تعالى:" فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ" {الاسراء: ٢٣}، "فكلمة "أف" تشمل ترك التعرض لهما بيسير من الإيلام النفسي فضلًا عن كثيره، ولا شك أن انتزاع المفردة من عملية حسية هي النفخ في التراب، وما إلى ذلك، جعلها تصوّر بحسية هذا الموقف، فهي اسم صوت بمعنى أتضجّر، وهي تختزن ما يقال قبلها، وما يقال بعدها من كلمات غيرلائقة بمكانه الوالدين السامية، فقد مثلت الحالة النفسية بحسّيتها[١]"

*****

وتحدث القرآن عن حالة نفسية معنوية هي حالة التضايق والضجروالحرج في قوله:"ضاقت" فيجسمها كحركة جثمانية: قال تعالى:" وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ" {التوبة: ١١٨}،"فالأرض تضيق عليهم، ونفوسهم تضيق بهم كما تضيق الأرض؛ ويستخيل الضيق المعنوي في هذا التصوير ضيقًا حسّيًا أوضح وأوقع، وتتجسم حالة هؤلاء الذين تخلّفوا عن الغزو مع الرسول، فأحسوا بهذا الضيق الخانق، وندموا على تخلُّفهم ذلك الندم المحرج، حتى لا يجدوا لهم

[١] جماليات المفردة القرآنية ٢٧٨.

ملجأً ولامفرًا ، ولايطيقوا راحة، إلى أن قبل الله توبتهم[١]". فمفردة "ضاقت" صورت هذه الحالة النفسية التى كانوا عليها بصورة حسية واضحة .

*****

ونتأمل تصوير الكفار يوم القيامة في قوله عز وجل:" وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ" {الشورى: ٤٥}، "فإن كلمة "خفي" تختزن كل المعانى النفسية التى يتسم بها ذلك الذَليل، وهى منتزعة من صورة بصرية، وتختزن كل تأوهاته وحنقه على من أضله ، وقد رأى العذاب ، وتوحى بإيجاز رائع بخجلته من خالقه وانكساره[٢]،" فالكلمة تصور عنصر الحركة بالعين وارتباطها بالحركة النفسية التي تظهر الذل والانكسار، فالذليل لا يرفع نظره وإنما ينظر دائمًا إلى أسفل، فمفردة "خفي" تربط بين الحركة الحسية والنفسية معًا.

كما أن اللون أيضاً يساعد على رسم الصورة ؛ لأن اللون له أثره في النفس الإنسانية فترتاح إليه ، أو تنفرمنه[٣] ، كقوله تعالى في وصف البقرة:" إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ" {البقرة: ٦٩}، فالسرور حالة نفسية متولدة من تأثير صورة اللون فيها ، وهذا ما توحي به ظلال الصورة الحسية لهذا اللون الأصفر. فكلمة(صفراء) بدلالتهاالحسية تلقي بظلها في الخيال ، فترسم صورة لبقرة صفراء فاقع لونها، تسر النفس عند النظرإليها .

*****

[١] التصوير الفنى فى القرآن ٨٠.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ٢٧٨.

[٣] انظر وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٤٠٦.

وقد رسم القرآن صورة للنفس الجاحدة بنعم الله ، عند نزول الشر بها فى قوله تعالى:" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا" {الإسراء: ٨٣}، فالتعبير بمفردة "مس" "يفيد أن الأصابة بالشر ولو خفيفة تصيب من النفس ما تجعلها يائسة ، والشر كل ما لا يرغب فيه ، ويطلق على الأمور الضارة حسيًّا ونفسيًّا، وعلى الأمور القبيحة خلقيّا، وقوله "كان يئوسًا" هنا نجد كلمة كان الدالة على اللزوم والاستمرار ومفردة "يئوسًا" بصيغة المبالغة الدالة على لزوم اليأس وإيغاله في النفس، وعدم افتراقه عنها، فيكون فى حال بؤس مستمر، ويأس دائم[١].

فالكلمات تصور حال النفس المنحرفة ، التى تعيش في النعمة ، ولا تشكر المنعم ، ويصيبها اليأس إذا نزل بها ولو شيء خفيف من الشر.

وتنظر عائشة عبد الرحمن إلى قرائن السياق العام كما فى قوله تعالى:" يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا" {البلد: ٦}، فتبين البعد النفسي للفعل "أهلكت" قائلة:" ولم يقل أنفقت مع قربها، وذلك لأن الإهلاك أولى بالغرور والطغيان، وأنسب لجوّ المباهاة والفخر المسيطرعلى المقام[٢]".

ومن بين الحالات النفسية التي يصورها القرآن، ما يرسم "نموذجًا" إنسانيًا واضحًا للعيان، يريد أن يُشخِّص حالة العناد السخيف، والمكابرة

[١] المعجزة الكبرى لأبى زهرة ٨٢ بتصرف.

[٢] التفسير البيانى عائشة عبد الرحمن ١/١٨٧.

العمياء، التي لا يجدى معها حجة ولا برهان ، فيبرز"نموذجًا انسانيًا"[١] في هذه الكلمات :

فكلمة "سكرت" فى قوله سبحانه:"وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ بابًا مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ" {الحجر: ١٤-١٥}.

"فقد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به ، عما حدث لأبصارهم من الزيغ، فكانت كلمة "سكرت"، وهي مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب في الرؤية، ولاسيما أن هذا السكر قد أصاب العين واستقل بها، ومعلوم أن الخلط من خصائص السكر، فلا يتبين السكران ما أمامه[٢]."

*****

• ظلال الدلالة الخاصة

وللألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير، حينما يوجه إليها انتباهه، وحينما يستدعى صورة مدلولها الحسية[٣].

مثال ذلك قوله تعالى:" وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا" الأعراف/ ١٧٥، **فكلمة "انسلخ" بدلالتها الحسية تلقي بظلها في الخيال، فترسم صورة الإنسان الذي ينسلخ عن آيات الله بعد أن لازمته**

---

[١] انظر التصوير الفنى فى القرآن ٤٧.

[٢] من بلاغة القرآن ٥٩، انظر المفردات في غريب القرآن ٤١٦.

[٣] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٤٠٦، التصوير الفني في القرآن ٩٥، التعبير الفني في القرآن ١٨٦.

والتصقت به، التصاق الجلد، فهو يجد مشقة في عملية الانسلاخ منها وهذا ما توحى به ظلال الصورة الحسية لعملية انسلاخ[١] الجلد. يقول سيد قطب "فالظل الذى تلقيه كلمة (انسلخ) يرسم صورة عنيفة للتخلص من هذه الآيات ؛ لأن الانسلاخ حركة حسية قوية[٢]".

*****

وقوله تعالى:" فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ" {القصص: ١٨}، فمفردة "يترقب" ترسم هيئة الحَذِر المتلفت فى المدينة التى يشيع فيها الأمن والأطمئنان في العادة[٣]. فهو ينظر يميناً وشمالًا وأمامًا وخلفًا يترقب من يأتيه من أمامه ، ومن يأتيه من ورائه ، ومن يأتيه من شماله ومن يمينه ، وكلمة "يترقب" تصور تلك الحال، وتصور النفس المحترسة الأخذة تجدها في اطمئنان نفسي ، واحتراس من غير اضطراب ، فالمترقب الخائف غير المضطرب ، لأن الخائف المضطرب لا يحسن الترقب ولا الحذر فيصيبه الهلع فيخاف من غير مخوف[٤].

*****

ويميل القرآن إلى تصوير قبح أعمال الكفار بمفردات توائم شنائعهم، يقول تعالى:"وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ"{آل عمران: ١٨١}، والمقصود بذلك العذاب هم اليهود ، يقول سيد قطب:" والنص على "الحريق" هنا مقصود لتبشيع ذلك العذاب وتفظيعه، ولتجسيم مشهد

---

[١] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٤٠٦.

[٢] التصوير الفنى في القرآن ٩٥.

[٣] التعبير الفنى فى القرآن ١٨٦، وانظر التصوير الفنى ٩٥.

[٤] المعجزة الكبرى ٩٠.

العـذاب، بهولـه وتأجّجـه وضـرامه ، جـزاء علـى الفعلـة الشـنيعة قتـل الأنبياء[١].فمفردة "الحريق" تصور مشهد التأجج والانتشار السريع، مما يصيب النفس بالخوف والرعب والفزع من شدته، وسياق الآية يوضح هنا أن هذا الحريق قد أعد لهم جزاء على قتلهم الأنبياء.

يقول الشعراوى:"ونقول: ذوقوا عذاب الحريق" والحريق يصنع إيلامًا إحساسيًا في النفس. ويتناول مفردة:" ذوقوا" فيقول: والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى، فمرة يكون الإحساس بالبصر، ومرة بالأذن، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق، والذوق هو سيد الأحاسيس، فهو حاسة لا تختفي من أي إنسان، وذلك أن الذوق أمر من داخل الذات، لذلك فهو أبلغ في الإيلام، واستيعاب ذلك العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق في كل مكان "ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ" والحريق هو النار القوية التي تحرق[٢].

*****

ونقف عند كلمة "أخذ" الواردة في مقام التهديد، إنه فعل له دلالة إلا أن دلالته تتسع في القرآن ، ويتغيّر حجم مفعولها ومن هذا[٣] قوله تعالى:" وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" {الأعراف:١٦٥}، وقوله تعالى:" وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ" {غافر:٥}، أى ليعذبوه أو يقتلوه[٤].

---

[١] في ظلال القرآن سيد قطب مج/١: ٤/٥٣٧

[٢] تفسير الشعراوى ٢٤/١٩٢١ وما بعدها بتصرف.

[٣] انظر جماليات المفردة القرآنية ٣٠٢.

[٤] تأويل مشكل القرآن ٢٧٢.

وقد تأمل الباقلانى مفردة "ليأخذوه" فقال:" هل تقع في الحسن موقع قوله:"ليأخذوه" كلمة، وهل تقوم مقامه في الجزالة لفظة، وهل يسدّ مسدّه، فى الأصالة نكتة لو وضع موضع ذلك "ليقتلوه" أو " ليرجموه " أو "لينفوه" أو "ليطردوه" أو "ليهلكوه" أو "ليذلوه" ونحو هذا ما كان بديعًا ولا بارعًا ولاعجيبًا ولا بالغًا [١]".

وكأن الباقلاني فهم أن هذا الفعل يدل على غاية العنف دون سائر أفعال الاجرام، ويدلّ على قوة الباطش وسهولة البطش، فالرسول لقمة سائغة، وكأنما تصوّر المفردة ضآلة حجمه، وضخامة حجومهم.

ومن هذا قوله تعالى : " حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً" {الأنعام: ٤٤}، فهنا يسند الفعل إلى الخالق الذى تنصاع له كل الكائنات، فيزداد عنفاً وغموضاً، ولا يستطيع الذهن أن يحيط بكل مساحة هذا الفعل؛ لأنه من عند الخالق ففيه الهول الأعظم، على الرغم من أن الفعل "أخذ يأخذ" محدود الدلالة فى استعمالنا[٢].

يقول البوطى:" وأى تصوير لضئلة شأنهم ونسيانهم أنفسهم أبلغ وأروع من هذه الكلمة[٣].

• الدلالة السياقية

تنتقل المفردات من الروابط الخاصة بها، إلى الروابط السياقية أيضًا، فيرتبط إيقاعها المنفرد بالإيقاع السياقى المنّسق فى التعبير كلّه، فتتم به

---

[١] اعجاز القرآن الباقلانى ١٩٧.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ٣٠٥.

[٣] من روائع القرآن البوطى ١٧١.

العلاقة بين الإيقاع الكامل للمعنى التام المراد تصويره، فيتناسق الإيقاع بنغماته أو توقيعاته مع المعنى بكل جزئياته، فالألفاظ وحدها على الرغم من تنوّع علاقتها البنائية لا تكفي لتصوير المعنى، ما لم توضع في السياق الملائم لها [١].

والسياق هو الذي يمنح القوة للألفاظ، ويظهر كنوزها المشعّة بالصور والظلال والإيقاع العام. وقد بسط عبد القاهر الجرجانى ذلك في نظرية النظم التي أشرنا إليها فى الفصل الأول.

يقول د/ مصطفى محمود: "كلمات القرآن منفردة بذاتها وبخصائصها، لا تستطيع أن تغير كلمة أو تبدل عبارة أو تقدم جملة، فكل كلمة تمسك بالأخرى مثل الذرات في مجال مغناطيسي محكم"[٢].

*****

تتعدد المعانى للمفردة وفق السياق الخاص للآية، مثل كلمة الهدى التي رصدوا لها سبعة عشر معنى، "وأصل هدى أرشد، كقوله تعالى:" عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ" {القصص: ٢٢}، وقوله:" وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ" {ص: ٢٢}، أي أرشدنا.

ثم يصير الإرشاد بمعان، كقوله:" وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ " {فصلت: ١٧}، أى بيّنا لهم، وقوله:" أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا " {السجدة: ٢٦}، أي: أولم يبيّن لهم، وقوله تعالى:" أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ " {البقرة: ٥}. فالإرشاد في جميع هذه الآيات مفسر بمعنى البيان.

---

[١] انظر وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ٣٩٣.

[٢] القرآن كائن حى د/ مصطفى محمود ١٤.

ومنها إرشاد بالدعاء، كقوله:" وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ " {الرعد: ٧}، **أي نبيّ يدعوهم. وقوله:**" وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا " {الأنبياء: ٧٣}، **أي يدعون،** "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" {الشورى: ٥٢}، **أي تدعو. ومنها إرشاد بالإمضاء، كقوله:**" وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ" {يوسف: ٥٢}، **أي لا يمضيه ولا ينفذه، ويقال: لا يصلحه**[١].

وجاءت بمعنى التوراة في قوله تعالى:" وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ" {غافر: ٥٣}. **وبمعنى المعرفة**[٢] **في قوله تعالى:**" وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ " {النحل: ١٦}.

*****

وهناك مفردة تلقي إشعاعًا شاملًا في مفردات السياق كله، من حيث لا يسدّ غيرها في هذا المكان وتنفرد بمكانها من حيث ملاءمة أقصى التأثير، وقد تكون الكلمة لها معنى في استعمالنا، فإذا قرآناها في الآيات، وجدنا أنها تتجاوز كل تعابيرنا، متمكنة من موضعها بمنزلة اللبنة المطلوبة للبناء الكلّي.

ومنه على سبيل المثال قوله تعالى:" نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ " {لقمان: ٢٤}، **واقترنت كلمة غليظ بالميثاق ثلاث مرات في قوله تعالى:**" وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا " {النساء: ٢١} **عن إمساك الزوجات أو تسريحهن، وقال عن بني إسرائيل:**" وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا " {النساء: ١٥٤}، وقال

---

[١] انظر تأويل مشكل القرآن ٢٤٨.

[٢] جماليات المفردة القرآنية ٦٨.

عز وجل:" وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا" {الأحزاب: ٧}.

وتشير كلمة "غليظًا" هنا إلى أهمية الرسالة السماوية وصدق الأنبياء، كما أن غلظ العذاب مناسب للشعور بوطأته على جسوم الآثمين، فالانتقال من حسّية إلى حسية أعمق تأثيرًا، والميثاق معنى ذهنى، والغلظ يدل على تأكيده[١].

*****

وانظر إلى قوله تعالى:" وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" {الزمر: ٤٨}، وقوله:" وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" {الجاثية: ٣٣}، **"في الآية الأولى "كسبوا" وفي الثانية "عملوا" فالآية الأولى جاء قوله "كسبوا" بناء على ما وقع الخبر به عن الظالمين في الآية التي قبل هذه الأية حيث يقول:**" أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ" {الزمر:٢٤}، **ثم اعترضت آيات تؤكد ما على الظالمين من الوعيد، وتقوى ما للمصدقين من الوعد إلى أن انتهت إلى ذكر هؤلاء الظالمين الذين قيل لهم:"ذوقوا ما كنتم تكسبون" فقال تعالى:"** وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ" {الزمر: ٤٧-٤٨}، **فكان المعنى: ولو أن للظالمين الذين تقدم ذكرهم ما فى الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب، ثم قال:" وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا" أي الجزاء على ما كسبوا من سيئاتهم، كما قيل لهم:"**

[١] جماليات المفردة القرآنية ٢٩٦.

ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ" أي جزاءه، ثم تبعه ذكر السبب في الآيات التي بعدها[١] " في قوله:" قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ" {الزمر: ٥٠-٥١}،فلفظ "كسبوا" قد جاء في موضعه مع سياق الآيات السابقة واللاحقة.

وأما لفظ "اعملوا" في سورة الجاثية فالطريق في اختياره، كالطريق في اختيار كسبوا في سورة الزمر، لأن قبلها قوله تعالى:" وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" {الجاثية: ٢٨}، وبعدها:" إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ" {الجاثية: ٢٩}، في الموضعين، وتبع ذلك قوله:" وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ" {الجاثية: ٣٣}، فبنى "عملوا" على ما سبق، كما بنى هناك "كسبوا على ما تقدم"[٢] من سياق الآيات.

*****

• دلالة السياق والصور الفنية للمفردة

ونموذج آخر للتركيب الفنى للكلمات القرآنية وما فيه من ايحاءات فنّية، منبّعثة من دلالة السياق، فبعض الآيات تصور المقدمات التي تسبق يوم القيامة، وما يكون فيها من ظروف واضطرابات، ومن ذلك مفردة "الجبال" تناولها القرآن من جوانب مختلفة، فلننظر من أي الجوانب عرضت فى كل سياق، ولماذا عُرض هذا الجانب هنا، وذلك الجانب هناك.

---

[١] درة التنزيل وغرة التأويل٧ ١١١.

[٢] المرجع السابق ٨ ١١١ بتصرف.

قال تعالى:" يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا" {النبأ: ١٨-٢٠}، **"فالجبال هنا سراب، وهو صورة وهمية، وفي سياق آخر يعبر عن زوال الجبال بصورة كثبان الرمل المهيل، قال تعالى:**" يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا" {المزمل: ١٤}، **وهذه الصورة مرتبطة بجو السياق الواردة فيه، وكله يوحي بالثقل والتأني، ففي السورة ورد قوله:**" إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً" {المزمل: ٥-٦}، **وفي سياق آخر تصوّر بالعهن:**" وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ" {المعارج: ٩}، **لتوحي بألوان الجبال، المختلفة ويزيد هذه الصورة في موضع آخر بوصف العهن بالمنفوش** " وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ" {القارعة: ٥}، **والصورة هنا تتناسق مع السياق المرتبطة به وفيه الفراش المبثوث، فاقتضى ذلك وصف العهن بالمنفوش أما صورة العهن بدون وصف فتتناسق مع صورة المهل.**

وتصوّر الجبال الزائلة في سياق آخر بصورة الهباء المنبث " وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا" {الواقعة: ٥-٦}، **وصورة الهباء أضعف من العهن المنفوش.**

هذه الصور المتنوعة للجبال الزائلة، ليست من قبيل التكرار للمعنى الذهني الواحد وإنما هناك فروق دقيقة في المعاني، تؤديها الصورعبر الأنساق التي تقتضيها، وهذا يؤكد ما قلناه، ونقوله دومًا، بأن الصورة القرآنية تعتمد على نظام العلاقات في التعبير والتصوير معًا ففي سورة المزمل، لم يرد ذكر لوصف القيامة سوى رجفة الأرض والجبال، وجو السورة يوحي بالثقل والتأني، فجاء تصوير الجبال بالكثيب المهيل للإيحاء

بقوة الرجفة للأرض، المؤثرة في الجبال الثابتة، فتصبح رمالًا متحركة، ويمكن اعتبار هذه الصورة، هى المرحلة الأولى لزوال الجبال يوم القيامة.

ثم في سورة المعارج، نلاحظ ذكرًا لعذاب الكافرين وطوله، فاقتضى السياق تصويرها بالعهن، لبيان تأثير ذلك اليوم في الصورة الحسيّة الصلدة، ثم تأتي الزيادة في الوصف "العهن المنفوش" لبيان ألوان الجبال، لكي تتناسق مع ألوان الفراش المبثوث.

وفي سورة الواقعة نلاحظ تصويرًا لشدة أهوال القيامة وما فيها من خفض ورفع، ورجّ الأرض وبسّ الجبال، فاقتضى هذا السياق تصويرها بالهباء المنبث وهو أضعف من العهن، ثم في سورة النبأ تصوّر بالسراب يحسبه الناظر شيئًا وهو لا شيء فى حقيقة الأمر أي أن الجبال تزول ولا يبقى لها أثر.

أما في الصور المتقدمة، فتثبت لها وجودًا ضعيفًا، فصورة الكثيب المهيل هى المرحلة الأولى في زوالها، حيث تؤثر رجة الأرض فيها فتضعف من تماسكها، وتجعلها رمالا متحركة غير متماسكة، تتبعها صورة العهن الضعيفة الملونة، ثم تتبعها صور تناثرها كالهباء في الهواء، حتى تصبح في النهاية سرابًا لا وجود لها فهى صور متدرجة، ترسم مراحل زوال الجبال بدقة وعناية، من خلال السياق الذي يقتضيها، حتى تكوّن في النهاية صورة متكاملة لها.

فالصورة القرآنية كما اتضح من صورة الجبال المتعددة صورة نامية متفاعلة وليست صورة مجزأة، مفصولة عن سياقها.[١]

[١] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن / ١٠١-١٠٢.

من الملاحظ أن الصورة حين تتناول المعانى الذهنية بالتصوير، تربطها بالسياق الواردة فيه، فتتنوّع الصور، بتنوّع الأنساق التعبيرية، وتكتسب هذه الصور إيحاءاتها وظلالها، من خلال علاقات السياق المتشابكة.

فالمعاني الذهنية المرتبطة بالظواهر الكونية، تصّور بصور مختلفة يقتضيها السياق، "كالموج" مثلاً يقول الله تعالى: "وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ" {هود :٤٢}، فضخامة الموج وارتفاعه، تصوّر بالجبال، وصورة الجبال مألوفة مشاهدة، توحي بضخامة الموج وارتفاعه، والسياق الواردة فيه يقتضى هذه الصورة دون غيرها، فقد ورد في السياق القرآنى أن ابن نوح ردّ على نداء أبيه بقوله:" سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ" {هود: ٤٣}، فتصوير الموج هنا بالجبال، جاء متناسقًا مع السياق.

وحين يتغير السياق، نلاحظ أن الموج يصوّر ب "الظلل" ليوحي بالفزع والرهبة، يقول الله تعالى:" وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ" {لقمان: ٣٢}، فالسياق هنا كله خوف وفزع ورهبة، وهؤلاء الناس لا يعرفون ربهم إلا في الشدة، لهذا فإن صورة الموج هنا تصبح ظللا ترتفع فوق الرءوس، حتى تكاد تطبق عليهم لتفرقهم[١].

*****

وذُكرت الرياح في القرآن جمعًا و مفردًا فحيث ذكرت في سياق الرحمة جاءت مجموعة، كقوله تعالى:" اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا" {الروم: ٤٨}، وقوله:" وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ" {الحجر: ٢٢}،

[١] وظيفة الصورة الفنية فى القرآن ١٠٠-١٠١.

وقوله:" وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ" {الروم: ٤٦}، وقوله:" يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا" {الأعراف: ٥٧}، وحيث ذُكرت في سياق العذاب اتت مفردة[١] لقوله تعالى:" إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ" {القمر: ١٩}، وقوله:" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا" {الأحزاب: ٩}، وقوله:" كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ" {آل عمران: ١١٧}، وقوله:" مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ" {ابراهيم: ١٨}، وقوله:" وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" {الذاريات: ٤١}، وقوله:" فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ" {فصلت: ١٦}.

قال الراغب :" والريح معروف، وهى فيما قيل الهواء المتحرك، وعامّة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريّح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، وكلّ موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة"[٢].

"أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أُبّى بن كعب قال: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء فيه من الريح فهو عذاب، ولهذا ورد في الحديث:" اللهم اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا" وذكر في حكمة ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهبات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر سوْرتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت فى الرحمة رياحًا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد ولا معارض لها ولا دافع.وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى في سورة يونس :" هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ

---

[١] انظر البرهان الزركشى ٤/٩، المفردات فى غريب القرآن ٣٧٠.

[٢] المفردات فى غريب القرآن ٣٧٠.

فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ" {يونس: ٢٢}، **وذلك لوجهين: لفظي، وهو المقابلة في قوله: (جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ) ورُبَّ شيء يجوز في المقابلة ولا يجوز استقلالًا، ومعنوى: وهو أن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الرياح كان سبب الهلاك، والمطلوب هنا ريح واحدة، ولهذا أكدَّ هذا بوصفها بالطيب[١]".**

*****

وهناك آيات تتشابه مفرداتها، وتتغيّر فيها كلمة أو كلمتان، وهذا التغيرّ مرتبط بالموقف الذي يبسطه القرآن، وذلك كما وضحه الخطيب الإسكافى في تفسيره للآيتين " لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا " {الكهف:٧١}، "لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا" {الكهف: ٧٤}، إذ قال: "قيل الإمر إنّه الداهية، وقيل إنه العجب، والنّكر ما تنكره العقول ولا تعرفه ولا تجوزه، والنّكر لا يستعمل إلا فى المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدّين، فاختص الأول بالإمر؛ لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي قد هلك[٢]" وهكذا يمهّد بمعرفته اللغوية لبيان حقِّ المفردة فى الوجود دون غيرها؛ لأن السياق يتطلب ذلك.

*****

وفي قوله تعالى:" وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ" {الأنبياء:٧٠}، **وقال في سورة الصافات:**" فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ

[١] الاتقان فى علوم القرآن السيوطى ١/٦١٤-٦١٥.

[٢] درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الإسكافى ٨٧٨.

الْأَسْفَلِينَ" {الصافات: ٩٨}، **فقد جاء في موضع بلفظ "الأخسرين"، وفي موضع آخر بلفظ "الأسفلين" وهذا في قصة واحدة،**

ولو تأملنا لوجدنا أن كل لفظ قد جاء في موضعه من النظم والسياق، ففي سورة الأنبياء أخبر الله تعالى فيها عن إبراهيم عليه السلام أنه قال:" وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ" {الأنبياء: ٥٧}، **ثم أخبر عن الكفار لما ألقوه في النار وأرادوا به كيداً: "فجعلناهم الأخسرين" والكيد: سعى في مضرة لتورد على غفلة، فذكر مكايدة بينهم وبين إبراهيم عليه السلام، فكادهم ولم يكيدوه فخسرت تجارتهم وعادت عليهم مكايدتهم ؛ لأنه كسّر أصنامهم ولم يبلغوا من إحراقه مرادهم، فذكر الأخسرين فيما عاملهم به وعاملوه من المكايدة التي أضيفت إليها.**

وأما الآية التي في صورة الصافات فإن الله أخبر عن الكفار فيما اقتضى من "الاسفلين"، وهو أنه قال:" قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ" {الصافات: ٩٧}، **فبنوا له بناء عاليًا ورفعوه فوقه ليرموا به من هناك إلى النار التي اجّجوها، فلما علوا ذلك البناء وحطّوه منه إلى أسفل، والله تعالى نجّى نبيه -عليه السلام- وأعلاه عليهم، فانقلب عالىّ أمرهم، وأصبحوا هم "الأسفلين"، فلذلك اختصت هذه الآية بقوله:"**فجعلناهم الأسفلين"[١].

*****

[١] درة التنزيل وغرة التأويل ٩٠٥ وما بعدها بتصرف.

الخاتمة

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين، ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، وعلى الباحث أن يدقق الفهم حتى يتمكن من ترجيح معنى على آخر، حسب ما يقتضيه النظم والسياق.

ولما كانت الكلمة في القرآن لها بلاغة خاصة بأدائها، بمدها وغنّها، وبأصواتها الموسيقية، وتناسبها ومعانيها، وجب علينا أن نتلمس مظاهر الجمال فيها، ونبحث عن أسرارها.

فكان من حديثنا هذا بيانٌ وتوضيحٌ لهذا الاتجاه الذي احتوى على روائع المفردة القرآنية المكوَّنة بداية: من الحرف ثم الكلمة، بما تحمله من معنى، لنصل إلى محاولة فهم وبيان بعض من أسرار الإعجاز القرآني في تلك المفردة.

ونستطيع أن نتبين أهمية المفردة القرآنية في دراسة بلاغة القرآن، فهي الوحدة المكونة للآيات، وهى عنصر فعّال في توصيل المعنى للمتلقّى بصورة بيانية ، وهي أيضًا لها مكانتها في إعجاز القرآن ولها جوانبها المتعددة الثرية.

وبقدر ما وجدنا من المعانى والأغراض السامية، لحروف القرآن الكريم المكونة للكلمة، فكانت في غاية الدقة، حيث إنَّ كلَّ حرفٍ يقع موقعه بحساب دقيقٍ، وحكمة بالغة. حتى تخرج الكلمة سهلة على اللسان، خفيفة على السمع، تشد انتباه السامع والقارئ.

وقد تبين لنا أنَّ هناك نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤديه من معنى ارتباطًا وثيقًا، وهذا ما تحقق فى كثير من المفردات، كما اتضح في أصوات حروف كلمات العذاب و الوعيد، وحروف كلمات الجزاء والوعد.

ولوحظ أيضًا أن لبعض الألفاظ جرسًا موسيقيًّا واضحًا مناسبًا لمعناها، مما كان له أبلغ الأثر فى التأثير النفسي واستشعار الطمأنينة.

فالمفردة القرآنية تمتاز بجمال وقعها في السمع، فألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان في سهولة ويسر، ويعذب وقعه على الأذن، في اتساق و انسجام.

والمفردة القرآنية تجسّم المعانى المجردة وتحيلها إلى أجسام أو محسوسات، كما أنها تصور المعانى الذهنية والحالات النفسية وتنقلها من التعبير المجرد إلى مشاهدات وصور متحركة، كما أنها تخلع الحياة على المواد الجامدة والظواهر الطبيعية.

وكان تصوير ذلك كله بنظم دقيق ينبعث من المعانى المؤلفة من الحروف والكلمات، فالحروف متآخية في الكلمات، ولها موسيقى و نغم تهتز لها المشاعر، والكلمات معبرة عن المعاني بأدق تعبير وتصوير للمشاهدة الحية الناطقة.

وقد تناول القدماء المفردة من خلال التصوير البياني، وأدركوا أن الحسَّية تقصد لأجل زيادة الأثر النفسي، كما بينوا علاقة المفردة بالمعنى وتمكنها في الآية.

ومن خلال دراسة الأبعاد الفنية لصيغ المفردات، قد تبين لنا أن الصيغة تختصر الكثير من المفردات، كما أنها تلقى بظلالٍ نفسية خاصة.

وقد تبين لنا أيضًا أن القرآن الكريم يعنى بنقل اللفظ إلى صيغة أخرى أكثر منها حروفًا ليضيف إلى معناها الأصلى معنى جديدًا، حتى تتقابل قوة اللفظ وكثرة حروفه مع قوه المعنى وتمكينه في النفس.

ولا يوجد في القرآن ترادف ؛ لأن كل كلمة تحمل معنى خاصًا معيّنًا، لا تحمله الكلمة المرادفة، وقد أثبتنا بعض الشواهد التي تؤيد ذلك بالاستعانة بجهود العلماء.

وتبين لنا أيضًا خلال دراسة المفردة القرآنية، اتساقها الكامل مع المعنى، وموافقة السياق الكلي، واتساع دلالتها لما تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

هذا وما ظهر من عظمة بلاغة المفردة القرآنية هو بعض من إعجاز النظم القرآني ، الذي يتسع مداه فالقرآن معجز على مدى الدهور والعصور.

المصادر و المراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً:

١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطى، دار ابن كثير – بيروت لبنان– ط الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٢) اعجاز القرآن للباقلانى، تحقيق السيد أحد صقر – دار المعارف بمصر ط الخامسة ١٩٩٧م.

٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى، دار الكتاب العربى بيروت ط الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

٤) الأعجاز البيانى ومسائل ابن الأزرق لعائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط الثالثة.

٥) اساس البلاغة للزمخشرى، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ط الأولى ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

٦) البرهان فى علوم القرآن للزركشى، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار احياء الكتب العربية عيسى البابلى الحلبى و شركاه ط الأولى ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

٧) البيان و التبيين للجاحظ مطبعة لجنة التأليف والترجمة القاهرة ١٩٤٨ م.

٨) تأويل مشكل القرآن ابن قتيبة، تحقيق دار ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

٩) التصوير القرآنى للقيم الخلقية والتشريعية على صبح، المكتبة الأزهرية للتراث.

١٠) التصوير الفنى فى القرآن الكريم سيد قطب دار الشروق ط التاسعة ١٤٠٧-١٩٨٧.

١١) التعبير الفنى فى القرآن الكريم بكرى أمين، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان ط الأولى ١٩٩٤.

١٢) تفسير الشعراوى، خواطر فضيلة الشيخ محمد الشعراوى، ط دار أخبار اليوم.

١٣) التفسير البيانى للقران عائشة عبد الرحمن دار المعارف – القاهر ة ١٩٦٢ م

١٤) تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى، تحقيق محمد عبد النبى حسن، دار احياء الكتب العربية بالقاهرة، ط الأولى.

١٥) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن،تحقيق محمد خلف الله، د/محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط الرابعة.

١٦) الجامع الكبير لأبن الأثير، تحقيق مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمى ١٣٧٥هـ.

١٧) جماليات المفردة القرآنية لأحمد ياسوف، دار المكتبى – دمشق – ط الثانية ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩م.

١٨) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تعليق محمد رشيد رضا، طبعة محمد صبيح وأولاده، ط السادسة ١٣٨٠هـ – ١٩٦٠م.

١٩) درة التنزيل وغرة التأويل الخطيب الإسكافى، تحقيق محمد مصطفى أيدين، ط الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٢٠) دفاع عن البلاغة لأحمد حسن الزيات، مطبعة الرسالة القاهرة ط الأولى.

٢١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى، دار الكتب العلمية ط الأولى ١٤٠٢-١٩٨٢م.
٢٢) الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق د/ محمد أبو الفضل إبراهيم،د- على محمد البجاوى، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ط الأولى.
٢٣) غريب القرآن للسجستانى، تحقيق محمد أديب عبد الواحد حمدان، دار قتيبة - سوريا - ط الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥م.
٢٤) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق محمد ابراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة - مصر.
٢٥) القرآن كائن حى د/مصطفى محمود ط دار المعارف.
٢٦) كتاب الألفاظ لأبن السكيت، تحقيق فخر الدين قبادة، مكتبة لبنان ط الأولى ١٩٩٨.
٢٧) الكشاف للإمام الزمخشرى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ط الثانية ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.
٢٨) ما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن المجيد للمبرد، المطبعة السلفية فى القاهرة ١٣٥٠هـ.
٢٩) مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح ط ٢٤، دار العلم للملايين.
٣٠) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى، تحقيق فؤاد على منصور ط الأولى دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
٣١) المشترك اللفظى فى الحقل القرآنى عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة بيروت ط الثانية ١٤١٧هـ.
٣٢) المصحف المفسر للطبرى ط دار الغد العربى.

٣٣) المفردات فى غريب القرآن للأصفهانى، تحقيق صفوا عدنان الداودى ط الأولى ١٤١٢هـ، دار العلم – الدار الشامية، دمشق – بيروت.
٣٤) مفردات القرآن للفراهى، تحقيق د/محمد أجمل أيوب ط الأولى ٢٠٠٢م دار الغرب الإسلامى.
٣٥) معاجم مفردات القرآن د/أحمد حسن فرحات، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.
٣٦) معانى القرآن للقراء تحقيق أحمد يوسف النجانى، محمد على النجار، عبد الفتاح إسماعيل شلبى، دار المصرية للتأليف والترجمة مصر ط أولى.
٣٧) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ط الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
٣٨) المعجزة الكبرى القرآن لأبى زهرة، دار الفكر العربى.
٣٩) من بلاغة القرآن لأحمد بدوى نهظة مصر القاهرة ٢٠٠٥م.
٤٠) من روائع القرآن للبوطى، مؤسسة الرسالة – بيروت ط ١٤٢٠ – ١٩٩٩.
٤١) النبأ العظيم لمحمد دراز، دار القلم للنشر والتةزيع ط ١٤٢٦ – ٢٠٠٥.
٤٢) الوجوه والنظائر لأبى هلال العسكرى، تحقيق محمد عثمان، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة ط الأولى ١٤٢٨ – ٢٠٠٧.
٤٣) وظيفة الصورة الفنية فى القرآن عبد السلام الراغب ط الأولى ١٤٢٢ – ٢٠٠١، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب.

فهرس الموضوعات

المقدمة

التمهيد

الفصل الأول

الجوانب البيانية للمفردة القرآنية

١- اهتمام العلماء بالمفردة القرآنية
٢- مذاهب العلماء فى المفردة والنظم
٣- المفردة والتصوير القرآنى
- دور المفردة فى جمال الصورة
- جمال المفردة فى تصوير الحركة
- تصوير الحركة الصوتية للمفردة

الفصل الثانى

١- دلالات المفردة القرآنية
- دلائل صيغ المفردة القرآنية
- الترادف والفروق
- سراختيار الكلمة
٢- ظلال المفردة والمعنى
- ظلال الدلالة النفسية
- ظلال الدلالة الخاصة
- الدلالة السياقية
- دلالة السياق والصور الفنية للمفردة

الخاتمة

فهرس المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات